إبن الطنطل

إبن الطنطل

رواية

علي بداي

السويد 2021

اسم الكتاب: إبن الطنطل.

اسم الكاتب: علي بداي.

إصدار: دار ميزر للنشر والتوزيع.

www.maizar.se

الغلاف(C): الفنان فراس البصري.

تصميم الغلاف: غيث سلمان.

الطبعة الأولى: 2021.

حقوق النشر محفوظة للمؤلف.

رقم الإيداع الدولي: 978-91-986236-1-1

Bokensnamn: Tantal´s son.

Författare ©: Ali Badai.

Maizar förlag: www.maizar.se

Omslags bild: Firas Al Basri.

Omslags layout: Ghaith Salman.

Första upplagan: 2021.

ISBN: 978-91-986236-1-1

الى من كان سبباً في كتابة هذه الرواية

أجد نفسي مجبراً على مصارحتكِ بما أشعر به الآن: أنا، أما أن أكون جننتُ، أو إنك هي! ولخشيتي من أن أكون مجنوناً، تركت لك في نهاية هذه الرواية سجلاً بمفردات الهور، أما إذا لم أكن قد جننت فسوف لن تكوني بحاجة لهذا السجل.. ولأن هورنا لم يعد موجوداً على خارطة الأرض، سوف لن اترك قصة من قصصه الصغيرة تمر، سأعيد رصفها مع بعضها مثل قطع الموزاييك وأعرضها أمامك كي تذكرك بي وبك!

كائنات الهور

لم يتفق أهل الهور على الظروف التي تشـكل فيها مزهر في أحشـاء أمه. أين ومتى، ليس بوسع أحد الجزم. كانت أمه تترقب أوان ولادته في الصـيف الحار، وقت طباخات الرطب، فأعدت لنفسـها زاوية شـمال الكوخ الذي يسـمونه هناك الصـريفة، وظللتها بشـبكة من البردي، كانت ترشـها بالماء فتخترقها ريح الشـمال العذبة لتصـلها ندية باردة، لكنه لم يشـأ المجيء! لم تعجبه الدنيا واحتار العرّافون بأمره فهو حي يتحرك ويرفس بهدوء ولطف ببطن أمه التي لم تشـعر بمنغصـات الوحام، لكنه رفض النزول بوقته المحدد.

جدته بتيّة وحدها التي لم يساورها قلق من تأخر ولادة حفيدها:

– لا تلحّوا عليه! لا يريد المجيء في الصيف، سيختنق!

ثم ولد، من أرادوا أول الأمر أن يسموه صيهود، على كباشة عائمة من البردي ظهيرة يوم خريفي دافئ من أول أيام تشـرين. إختار أن يأتي في خلوة تحت سـماء الهور الزرقاء دون آلام الولادة. وما أن سـقط وليدها منها حتى نسيت الأم كل شيء. بمنجلها قطعت حبله السري ورمته في ماء الهور. غسـلته ووضـعته على الكباشـة ملفوفاً بألياف خضـر من

البردي الطري ثم اضـــطجعت الى جانبه تتأمله، كان خداه بلون ورد الرمان وكانت عيناه زرقاوين مثل عيون قطتهم.

حملق بها هادئاً، إســتغربت أنه لم يطلق صــرخة البداية الملازمة لكل وليد.

– لقد جاء باختياره، حدد وقت ومكان ولادته فعلى أي شئ سيصرخ؟

علّقت بتية.

حدث فريد لا يتكرر، ذهبت بمفردها وعادت مع ابنها مورد الخدين الذي أسموه بعد ثلاثة أيام مزهر.. آنذاك، كان الهور فسيحاً يمتد حتى نهاية الدنيا، على كباشــاته بنت الآلهة الأولى بيوتها، ومن بين غابات برديه وقصـــبه نبتت بواكير الحكايات.. في تلك الأرض المقدســـة المغمورة بالمياه كان الإله الأعظم مردوخ قد حفر النهرين دجلة والفرات وخلق الحشــائش وقصــب الأهوار، والبردي، وغابات النخيل. وأقام ســداً في عرض البحر ليجفف قســـماً من أرض الأهوار ليعيش عليها الفلاحون أســـلاف مزهر.. تلك هي حكايات أهل الهور الأولين التي لم يقرأها أحفادهم لأنهم لا يعرفون القراءة، فهم لم يسمعوا بمردوخ ولا ابسو، لكنهم وجدوا أنفسهم يعيشون بهذه البيئة الغامضة الندية المحروسة بالطناطل التي تســكن البر والنهر والهور وتحرس الإيشــانات. والإيشــانات هي

خرائب الأجداد الأوائل الذين عاشوا هنا قبل آلاف السنين والتي يتوجب أن تبقى مصـــانة من عبث الأحفاد. وأهل الهور المســـنون لا يجدون تفسـيراً لنشـوء هورهم غير انه تجمع من بول الطناطل التي تسـكنه! لم ير أو يسمع الطنطل أحد من الناس لكن الجميع يخافه ويخشى بطشه. القلائل الذين ادعوا رؤيته وسـماع صـوته، عادوا بعقل مختل. ورغم ان لا أحد يســـتطيع ادعاء رؤية الطنطل لأطول من لحظة واحدة، الا أن اهل الهور يتناقلون اخباره بتفاصـيلها فكسـب عبر السـنين سـمعة القوي الأحمق لأنه يفعل المعجزات، ولكنه لا يتورع عن الإطاحة بها بضـــربة واحدة من يده الهائلة ثم يضـحك منها ومن نفسـه بقهقهة الطناطل التي تشبه زئير ريح الخريف وهي تخترق قصب الهور..

يتـذكر مزهر أول مـا رأى في حيـاتـه، جـديلتي جـدتـه بتيّـة الطويلتين الحمراوين العابقتين بضـــوع الحنّاء والقرنفل. مازال يراهما ويســـتنشـــق عطرهما وهما تدغدغان خديه وتمســـحان وجهه المربرب الذي كان يغريها بقرصـــه. عرف أن جدته هي من أمســـك به من أذنيه مثل هر صغير والقى به في لجة ماء الهور:

– إبن الهور لا يغرق!

هكذا كانت تفعل مع كل مواليد القرية، تقرأ شيئاً بأذنه لا يسمعه غيره ثم تقذف به في الماء:

– أنظروا كيف سيعوم!

في طفولته وصباه، كانوا يلقبونه ابن الطنطل. عندما كبر قليلاً، صار يخاف العتمة لأنه سمع أن الطناطل التي تفقد أبنائها تستردها في الليل! ولأنه صدّق أنه ابناً لها، كان يتحايل على الظلام بسماع حكايات جدته، حتى يدخل للنوم خلسة. وكانت الجدة تحكي عن عبد الشط، وسنيّح الجوعان والقرطة الخرساء. جدته مستودع ضخم من حكايات الهور، هي لا تخاف، لا من جده، ولا من الحكومة، ولا حتى من الطنطل. كانت ذَكَر نسوان، هكذا كانوا يسمونها. تذهب للهور بمفردها وتنصب شباكها هناك لأيام وليال، ثم تعود زرقاء الجلد من فرط البرد وقاربها الكبير يغص بالسمك لتقص حكايات لا يصدقها سامعوها، لكن من له جرأة تكذيب ما يرويه لسانها الذرب؟ لم تقصد الهور مرة، الا وعادت بصيد يعادل حصة ثلاثة صيادين أو أكثر فيعيش البيت والجيران أياماً من عائد السمك. كانت تصفّ صيدها:

– إسمع مزهر، لاتكن مثل جدك، هذا هو البني وذاك العكد، الذي تحت هو الشلك، بجنبه الجصان وهذا اللابط هو الشبوط، لكن الخشني، الحمري، الزوري، والجري أعيدها للماء، أنظر، الشلك عريض الفم مثل جدك أما الكطّان فأصيده بالفالة.

"لاتكن مثل جدك"، كم مرة ســـمع هذه الوصـــية منها؟ وكم مرة همَّ بســـؤالها: ما باله جدي؟ لكنه لم يفعل، أو فعل مرة واحدة وكان ردها أكثر غموضاً من قصة الجد:

– جدك خالسه الطنطل!

لم تزده هذه العبارة إلا حيرة، لكنها رغم غموضـــها لم تكن صـــادمة له فهو تعوّد على صـــورة جده الركيك الواجم ذي الوجه المحايد وجدته القويـة ذات الملامح الجذابـة التي لا يجمعهـا بـه جـامع. وفي طفولتـه كلها، لم يصـــدق يوماً أن هذا الجد هو زوج هذه الجدة. أول الأمر كان يظنه أخاً لها وبقي لا يجرؤ على الكلام في هذا الموضوع. في أول أيام مدرســـة القصـــب الريفية، كان التلاميذ، من قريته والقرى المجاورة يتهامسون عن شارة تركها الطنطل على جده:

– نعم، اســـمع مزهر ولكن لا تخف فذلك حدث منذ زمن بعيد، عندما كانا جدك وجدتك ســـوية في الهور أيام شـــبابهما، خرج لهما الطنطل فجأة، فرّ الجد خائفاً مرعوباً فلحقه الطنطل وعاقبه بصـفعة على رأســه وأخذ كوفيته لكي يعود عاري الرأس الى قريته فيضـــحك الناس منه ثم داس رأســه بقدميه الهائلتين فبقي كالأبله. لم يكتف بذلك بل أخذ جدتك منه لأنها شـجاعة لم تهرب منه، بل وقفت منتصـبة القامة أمامه كأنها أمام واحد من أهل الهور، وراح معها في أطول "سـاعة شـيطان" وأكثرها

صـخباً عرفها الهور منذ زمان عليّخ الجبار، رقصـت لها قامات البردي والقصب وسمع خلالها صوت الريح تجأر مثل امرأة تطلق.

خاف أكثر، عندما سـمع من أحد الصـبيان وهو في الصـف الثاني، أن أباه كان ابناً للطنطل وليس ابناً لجده! لما كبر قليلاً وســـأل أين أمه، فهو لم يرها أبداً، قالوا لها أنها ماتت فظن الموت رحلة طويلة الى الهور، لكن أولاداً آخرين تهامســـوا أنها لن تعود، ليس لأنها ماتت بل لأنها طنطلة تعيش بالهور وتأتي كل ســـنة مرة لتراه دون أن يتمكن من رؤيتها. الطناطل، هذه الكائنات المخيفة غضـــبت على أبيه وقررت طرده من عشيرتها لسبب مجهول وطلقت أمه منه ووجهته للزواج بامرأة من البشـر. تزوجها فولدت له أخته سـاهرة ولذلك فأن أخته لا تشـبهه! قصـــة أخرى مخيفة غير هذه، تقول إنه ابن جدته وليس ابن أمه. هو إذن ابن الطنطل! أول الأمر لم يأبه كثيراً لإسمه، فلقبه الذي إلتصق به كان تعبيراً عن غرابة حدث ولادته أثناء وجود أمه وحيدة في الهور.. لكن اللقب أضحى ثقيلاً عندما شارفت طفولته على الرحيل..

كانت أوقات حكايات الجدة الليلية هي الأجمل في يومه، تبدأ دائماً بجملة:

– الآن في هذه الســـاعة، وأنت تنام بحضـــن جدتك.. هناك في الماء يسـتعد عبد الشـط ويهيئ عدته، كل همّه أن يحظى بسـابح ما، بعد أن يختلط الظلام فيقدمه اضحية للنهر..

مزهر رأى كل كائنات الهور إلا عبد الشـــط وكليب الماء اللذين ســـمع بهما ولم يرهما أبداً، أمضـى سـنوات الصـبا حالماً بالتجوال بين كهوف النهر وتضـاريس الهور، لا يكتف بخضـرة البردي وانسـياح الماء الذي ليس له حد، بل يرسـل نظرات حالمة الى الماء ويتسـاءل: ماالذي هناك تحت؟ أمنية الطفولة الكبرى كانت أن يغوص الى الأعماق حيث كثبان رمل لم تر النور ابداً، وبيوت أسـماك، وطحالب، وسـلاحف، وشـباك صـيادين متقطعة، وخيوط من نبات السـبّاح، وقواقع ابو الزلنطح، وابو الجنّيب، وابو الحكم وابو الزمّير ذو الشـــوكة التي طالما انغرزت في باطن قدمه. كان يتوق لرؤية بيوت كلاب الماء، يصـيح مع اصـحابه بأعلى الصـوت في الهور السـاكن: كليب الماي تريد حليب لو شـاي؟ ليرد الصـدى: شـاي.. شـاي.. شـاي.. فيعودون سعداء لان كليب الماء رد عليهم. ما أكثر حيوانات الهور؟ لكن أكثرها إثارة للفضـــول، هذا الكليب المختفي. كان الرفش واحداً من أول كائنات الهور التي أخافته. مـازال يحس بـالم عضـــتـه للآن. هو ذكر الســـلحفاة المتوحش ذو الأعصـاب المستوفزة دوماً والأسنان الحادة. كانت العضـة هائلة، أحس أسناناً تطبق على قدمه من الإبهام حتى الكعب! ضحكوا منه وقتها:

– كيف لرفش أن يلتهم ثلاثة أصـــابع وتصـــل أنيابه الى كعب القدم بعضـة واحدة؟ هذا فم كائن لابد أن يكون رأسـه بقدر رأسـي ثورين حتى تكون ســعة فمه بطول القدم، أما طوله فليس أقل من طول القارب. لا، هذه ليست عضة رفش، بل عبد الشط.

توسل جدته مرة أثناء حكاية عن عبد الشط:

– قصّي عليّ حكايتك مع، وكاد أن يقول جدّي الطنطل!

لم تجب لكنها انخرطت بترنيمة حزينة عن الفراق والبعد والشوق فعرف أن شـائعة عشـقهما صـحيحة وأنها مازالت تحن لأيامها معه. لم يسـألها أكثر لكنه نام كي لا يبكي.. أكثر ما كان يخيفه هو أن ترحل جدته الى الهور فلا يســمح لها عاشــقها بالعودة، ما الذي يمكن فعله مع طنطل عنيد؟

عندما يســتعيد ملامحها، تأتيه جدته بطولها الفارع ووجهها المســتدير المشـرب بحمرة وعينيها الخضـراوين وجدائل شـعرها الأحمر التي تمتد حتى ركبتيها. كان عطرها يسـبقها فيتعمد البكاء أو كسـب شـفقتها كي يظفر بحضــنها الملون بأنواع العطور. بتّية شــخصــية مهابة تخشــاها النساء والرجال على حد سواء. ولم يكن موقف النساء منها، غيرة نسائية طبيعية سـببها جمالها وفرادتها وشـجاعتها التي تفوق التصـور، بل هو

دفاع آلي غريزي ضد سطوة شخصية لا يمكن الوقوف ضدها.. كانت كريمة كالهور، توزع صيدها بلا حساب على أهل السلف، وتتفقد حالة أهله، ولم يكن بوسع واحدة تجاهل توجيهاتها.. فكلهن بحاجة لها. هي التي لم يلد طفل الا على يديها. هي بتيّة التي رأت، وعاشت كما لم تعش امرأة قبلها!

في يوم من أيام الشتاء الرطبة وصلهم النفط. قليل من موجودات الهور كرهها مزهر: الرفش، عبد الشط والنفط. النفط ربما أكثر، لا تقرب الماء في العتمة تنجو من عبد الشط فهو لا يظهر الا في الماء بعد الغروب ولكن كيف لطفل التفريق بين النفط وماء النهر؟ كانت أخته ساهرة وقتها أكبر قليلاً من القطة، وأهل الهور لا يملكون ما يخبئون به المواد الخطرة، الدواء، والسكاكين، والبنادق، والخناجر، وأدوات صيد السمك، كلها تركن في زاوية من زوايا الصريفة مغطاة بالقش أو ملفوفة بقطعة قماش. مكان آخر للمعدات الحادة مثل الخنجر ذي القراب هو بين طيات اللحف التي يضعونها على المحمل، ولكن اين تخبئ النفط؟ زحفت البنت نحو إناء صغير مركون في زاوية الصريفة ولم يلحقوها الا بعد أن شربت نصفه. كان نفطاً! بقيت تتقيأ ثلاثة أيام ثم اغمضت عينيها ولم تتحرك فقالوا ستموت، ملائكة الموت قد دخلت البيت فأصطكت اسنانه رعباً. هيأوا لساهرة تابوتاً صغيراً كي يدفنوها في الجزيرة الى جانب عظام اسلافها. تلك كانت أولى حالات تماس مزهر

مع الموت. كره النفط ورائحته التي تصـــيبه بالغثيان وتثير في ذهنه صـورة اللحد الصـغير الذي نجروه لكي يضـعوا سـاهرة فيه ثم يقفلونه ويدفنونها تحت التراب، هناك في الجزيرة الموحشة التي لا يصلها الناس والتي تتجول بها الطناطل والسعالى. ربما بعد أيام ستنبش قبرها القرطة. أضـــاف النفط لكائناته المخيفة واحداً من المفزعات الجديدة. القرطة. الحيوان المخيف المتخصص بنهش لحوم الصغار. الماء هو الحياة أما الجزيرة اليابســة البعيدة الواســعة التي لا ماء بها فهي موطن الموتى. هناك ترقد سلالات ساكني الهور المتعاقبة بلا علامات، ولا شواهد، ولا أضرحة، ولا حدود، ولا زيارات. والمدهش في الهور انه لا يجاور الموت ولا يتصل به الا لماماً، فليس في الهور مقابر تذكّر الانسان بما ينتظره، وأهله ليسوا مثل المصريين القدامى الذين عاشوا حياتهم آملين بالحياة الأبدية بعد الموت فاهتموا بالقبر أكثر من البيت، والجثة أكثر من الجسد، وكان الموت هو الحدث الأكثر اسعاداً لهم، فهو بداية الانتقال من المؤقت الى الدائم..

إبن الهور أخذ من الالهة سابيتو وصيتها لجده جلجامش وهو يشكو لها:

"ليتني لا أرى الموت الذي أخشاه.."

فترد عليه:

أي جلجامش! الحياة الخالدة التي تســـعى اليها لن تجدها، والآلهة اذ خلقت الانســان أقامت الموت في جبلته، وجعلت حياته حبســة أيديها.. بالطعام والشـــراب املأ معدتك، ابتهج ليلك ونهارك، اجعل كل يوم من أيامك عيداً سعيداً، بالناي والقيثارة اطرب نفسك، وبالرقص انعش فؤادك ليل نهار. ارتدي من الثياب أنظفها، اغسل رأسك وضمخ شعرك واغسل بدنك بأعذب المياة، انظر بفرح الى الصغار الممسكين بيدك وتمتع بين أحضان المرأة.

حتى الآلهة العتيقة حثت مخلوقاتها على اقتناص الفرصـــة والتمتع بالحياة..

قالت الالهة سابيتو:

اي مطشر، أي جعاز أي بتيّة، الحياة الخالدة لن تجدوها!

هم يعرفون أن الميت لا يعود ولا يعوده أحد ولا لقاء به بعد. صـــراخهم الهســـتيري عند كل موت يدل على ابدية الفراق. الميت قد انتقل من الهور الى الجزيرة التي من المحتمل أن تزورها الطناطل بين حين وآخر. هناك، في الجزيرة، تختلط العظام القديمة بالجديدة بعد أن تضيع العلامات لتروي قصة دورة الطبيعة بكل بساطة وتلقائية. جيل يأتي من الماء وآخر يروح ليســكن الجزيرة الى الأبد. يرى ابن الهور الموت عند

وقوع الحدث المفزع، مثل من يشـهد صـاعقة أو يداهمه فيضـان. يدلف الموت، يأخذ من يريد فتلطم اللاطمات بكل ما فيهن من قوة مباغتات بهذا الذي لا يعرفن من يكون، ومن أين دخل صـرائفهن المسـالمة، وما الذي فعلنه له كي يسـتل صـغارهن من احضـانهن أو يترك بيوتهن بلا معيل. أما الميّت المغادر فيمضـي ملفوفاً بحصيرة من القصب يسمونها بارية واحياناً بتابوت خشـــبي، الى موطن الأموات، الجزيرة.. يرحل ثم يُنسـى، فالمغادرون قد غادروا ولم يتركوا ما يذكّر الباقين بهم، لا صـور ولا أصـوات. دشـاديشـهم سـتُحرَق لكي يطرد دخانها البق والبعوض عن أجساد الأبقار بعد مغيب الشمس، ولن يبق سوى الذكريات التي تتحول الى شئ يشبه ريش النفاش الناعم فتطير من كثرة دعكها..

لكن الموت الذي ترقبه مزهر بفزع لم يحلّ، فســـاهرة لم تمت! في اليوم الســـابع فتحت عينيها، وبعد عشـــرة أيام ضـــحكت فأقاموا وليمة تكريماً للعلوية فوّادة أم هاشم التي تشفع للبنات فتحميهن، ولا شك أنها هي من توســـط لها لدى ملك الموت فســـمع الدعاء وأجّل رحيلها. البنات من اختصاص فوّاده والأولاد من حصة سيد ذرب. لا تقسم بالسيد كذباً لأنه سيعاقبك، وعندما تحتاجه في مرضك سيقول لك: أنت أقسمت بي كذباً! عندما يتذكر مزهر ذلك الحدث الغائر في القدم يلوح له التابوت الصغير قد وضـع قرب المحمل الذي تنضد فوقه أفرشتهم واغطيتهم. تماماً تحت صـورة البنت الجميلة الباهرة الملصـوقة على واجهة المحمل والتي كان

يظنها جدته لكنهم يسـمونها بنت المعيدي بشـعرها الذي يشـبه شـعر الجدة! هو يتذكر الآن المعركة الحامية التي كانت هذه المعيدية موضوعها، لكنه لا يتذكر اسم الزاير الذي اتى لهم من مشهد بصورة مقدسة لرجل بلحية طويلة فخلعوا صورة بنت المعيدي ليحل الرجل ذو اللحية محلها. تم ذلك بغياب بتيّة التي كانت في الهور، في مقابلة مع طنطلها كما تصـور، ولكن حين عادت وجهت نظرة اسـتهجان نارية للمحمل ثم للموجودين وسألت بغضب:

– أين بنت المعيدي ومن هو هذا المرسوم هنا؟

– هذا الإمام عليه السلام، صورته أتى بها السيد من مشهد، خلعنا صورة بنت المعيدي لأن الأمام أولى بالمكان!

– الإمام؟ من قال لكم؟ هذا حرام، من يعرف ما شـكل جد جدي حتى تعرفوا شكل الإمام؟ من قال لهم ان يصوروا الإمام بهذا الشكل؟ من قال لهم انه يرضى بهذا؟ هذا حرام، أعيدوا بنت المعيدي!

وعادت البنت الى موقعها القديم بعد معركة كلامية وهياج اشـترك بهما بتّية من طرف وأهله من طرف آخر لكن النصر المؤزّر كان حليفها!

في الجانب الأيسـر من المحمل، كانت المرآة وهي أولى العجائب التي اكتشـفها بحياته حين نهض من نومه ذات صـباح فرأى طفلاً عارياً

بعمره تماماً يقف أمامه ويهذي. ضحك منه فضحك الطفل مثله، مد له كفه يتحسس وجهه فمد ذاك يده له. كانت أصابع الطفل باردة وملساء، ضحكا معاً، ركضا، تكلما كثيراً، التقط مزهر ثوبه الذي اشترته له جدته قبل العيد فرأى الطفل قد مد يده الى الثوب. تقدم منه ودفعه قاصـــداً انتزاع ثوبه منه فأحدث ذلك قرقعة مخيفة وغاب الطفل بعد أن ترك على الأرض شظايا بعضها لماعة جمعها مزهر بكفه فسال الدم من أصابعه. بكى كثيراً لكنه غفى على صـــوت البريمس ما أحلى النوم على إيقاع وشـــوشـــة البريمس غوغوغوغوغوغوغوغو؟ البريمس كائن أنيس لطيف عيبه الوحيد أنه لا يغنّي الا بعد أن يشرب نفطاً.

كل كائنات الهور، لا يمكنها العيش إلا به. هي مخلوقات مائية تجيد السباحة أكثر من الركض، إذا ابتعدت عن الماء تجف مثل القواقع. وتتشارك الحياة، بجانبيها المسالم والعنيف، مع الماء، والقصب، والبردي، وطيور البيوضي، والوز، وأبو منجل، والرخيوي، ونعجة الماء، والغرنوق، ودجاج الماء، والبعيجي، والخضيري، وام سكة، والحذّاف، والغنم، والحمير، والابقار والجواميس والأسماك والسلاحف والطناطل وكلاب الماء. كل طيور الأرض تحج للهور، قال المعلّم. تأتيه من سيبيريا وافريقيا وأوربا والصين في نهاية تشرين حاملة معها أدعيتها وأمانيها وتتلوا في أرجائه أناشيدها. بعضها يستريح فيه وينعم بأجواءه ثم يواصل

رحلته ناقلاً لباقي طيور الأرض حكايات مزهر وجدته بتية عشيقة الطنطل واغلبها لا يعود بل يؤدي مهمته المأساوية في تجديد حياة أهل الهور!

وفي الهور، يمكن أن تمضـــي يوماً بكامله دون أن تســمع أو ترى أي فعل غير فعل الطبيعة. سماء زرقاء في الأعلى وماء أزرق في الأسفل ومابينهما أصوات طيور، وحفيف أوراق، ورقرقة ساقية، وثغاء خروف، أو صــيحة ديك.. هناك، يمكن أن يعيش المرء ســنيناً دون أن يســمع شجاراً بين جار وآخر. وغالباً ما يعود ابن الهور من المدينة تاركاً خلفه موعداً رسمياً لأنه لم يطق البقاء اسبوعاً دون استنشاق ضوع القش المحترق صباحاً تحت الطاوة التي سيسيح عليها العجين السائل لكي يتحول الى خبز الســيّاح. ويمكن أن يضـــرب أحدهم عن أكل طعام المدينة وينتظر نهاراً كاملاً أو نهارين حتى يعود مســـاءً لقريته متلهفاً لخبز الطابك والبنية المشـوية على جمر المطّال. الناس هناك، يعيدون تدوير حياتهم التي تعدّها لهم الشمس والماء، دون تغيير. من الصعب أن تفرق بين حياة الحفيد والجد، فهو دوران على محيط دائرة، حياة محصـــورة بين الماء والجزيرة. حياة الهور نظام منغلق على نفســه. لا يعرف ناســـه تســـمية الأبناء بغير أســـماء أجدادهم الهورية التي لا يتســـاءلون عن معانيها كثيراً. في هذه القرية تعيش زمّاطه، جيتايه، مصّيعة، بتّية، صولاغه، حوّاطة، حِتِم، حرَيْشة، شرشابة، موحة، بتْهن، وفي القرية التي تجاورها أيضـاً في الأولى يعيش دشـر، دهش، كريش،

كزار، جعاز، شلاكة، مناتي، جماغ، شدهان، شيحان، حواشه، درباش، حبيتر، لهمود، صكبان، عذافة، شغاتي، مناتي، ماهود، وفي آخر قرية ذات الأسماء. كل ما حول ابن الهور يمور بالحياة، الانهر الفياضة، والسمك اللابط، والسلاحف التي تمضي استراحاتها في ضفاف السواقي، البردي الراقص على أنغام الريح، والقبرات الصافرة والبجعات الصارخة، وأشجار النبق والتين التي تحتفل كل ربيع. قلائل من جيل جد مزهر رأوا مدينة. جده جعاز مثلاً لم ير مدينة بحياته، ولد وتزوج وخَلَسهُ الطنطل فدخل حالة ذهول وتيهان طويلين الى أن مات في الهور، ولم ير أي مكان خارجه. كثيرون غيره، كانت حدود الهور هي حدود العالم بنظرهم. خرج جعاز من كل أمراضه بتقنيات محلية ناجحة، هي التدثير مرة والكي مرة أخرى والتنشير مرة ثالثة. التنشير كان أول العلاجات التي يتذكرها مزهر. ما زال يستعيد رذاذه البارد الذي رشته عجوز على وجهه الصغير. ليس كل من مسك كومة قصب وبللها صار منشّراً. الأرواح الشريرة، وروح الحسد خاصة، لا تخرج الا بعد أن تغمس يد مباركة كومة القصب أو البردي بالماء ثم تُقرأ تعويذة خاصة وينثر رذاذ الماء على وجه المحسود فيشفى. اليد المباركة لابد أن تكون لسيد، أو علوية أو شيخ، أو ملّا، وأحياناً لشخص حفظ آية الكرسي والفلق. في كل الأحوال لابد أن يؤمن المريض أنه سيشفى على يد مباركة كي يُشفى. تلك هي القاعدة. مزهر سيبقى مدى حياته مديناً لبتّية العظيمة، جدته الأسطورية عشيقة الطنطل، فهي الوحيدة التي

منعت ســحق كرامته مثل باقي الصــغار حين كانت امهات المرضــى منهم يتوسـلن السـيد ذا اللحية الطويلة من أجل أن يتكرم بالبصـق على طفلهن المريض كي يشفى.

رفضت بتّية هذا العلاج المذل وكانت تهزج:

مزهر يزهر.. يسوى الدنيا وما بيها..

كانت تتقبل التنشـير على حفيدها على مضـض لكنها تطرد السـيد ذا اللحية بلا أدنى أسف:

– إذا الله يريد أخذه.. يأخذه بلا بصاق وبلا وساخة فهو عطيته!

يا لعنادك يا بتيّة! لم تكن تقبل المألوف ولربما انتقلت هذه الصـــفة له فبقي لا يطيق بقاء وضع على حاله طويلاً.. أغلب وصايا الكبار ينفذها الصــغار برعونة.. معتقدين أنهم بهذا ســيبقون مخلصــين لأســلافهم! ومزهر واحد من هؤلاء، أخذ من جدته عنادها الاسطوري مضرب المثل لكنـه زرعـه على مـا يبدو في تربـة ســـيئـة، فـأنجبت لـه مجـاميعـاً من الأفاعي والثعابين. وإذا كان التنشـير يعالج المرض فأن العَلَق المجلوب من الأماكن المقدسة يقي منه ويمنع وقوعه ويصد عين الشر..

في الهور يمر الوقت بطيئاً مثل نزهة سلحفاة. وربما يكون وقت غروب الشمس أكثر أوقات القرى كآبة! يتصاعد الحزن ببطئ بعد أن تتدحرج الشمس ساقطة خلف الحقول، ويعلو نحيب الضفادع، ويسْوَد ماء النهر فيسارع كل من في الخلاء للعودة الى مأواه.. قريباً يبدأ موت القرى القصير.. الليل. ورغم انهم مندمجون بالطبيعة ويولدون بأحضان الماء، إلا أن أهل الهور كثيراً ما وقفوا مندهشين أمام عناصر حياتهم الغامضة مثل الماء، الظلام، الموت، وعبد الشط. اختلاط الماء والظلام مثلاً، الماء مجهول لا تعرف ما يخبئ تحته، والظلام كذلك. مزهر الصغير كان يعتقد أن الناس ينامون ليلاً خوفاً من الظلام فهو في القرى كائن غامض مخيف. هناك في الهور يعتقدون أن في نهاية الأرض ثمة من يسحب الشمس تدريجياً الى أسفل ليعم الظلام فيما بعد، وقد يعاقبهم فيمنع إعادتها لهم! يسحب الشمس ويضئ بدلاً منها فوانيس النجوم، ثم يطفئ النجوم صباحاً ويعيد الشمس! لكن الصورة في مخيلتهم لم تكن واضحة.. فهم يخلطون بين الأولياء والأوصياء، والأئمة، والطبيعة، والطناطل، وكل ما لا يعرفونه، ويعتقدون ان مكان الخالق السماء وأن قبة السماء الزرقاء هي خيمته، لذلك يلقبوه ابو خيمة الزرقاء. كان خوفهم يتجدد كل مساء، فهم لم يكونوا متأكدين من أن الذي سحب الشمس راض عنهم وسيعيدها لهم في الصباح، من يضمن ذلك؟ وإذا لم تأت الشمس؟ كيف سيحرثون حقولهم ويرعون أغنامهم وفوانيسهم الباكية لا تصمد أمام العتمة أكثر من ساعتين؟ وقت الغروب، قبيل حلول

العتمة، هو وقت الهدوء المقدس حيث يؤجل المتخاصمون خصوماتهم ويحاولون تذكر ذنوبهم الصغيرة التي اقترفوها خلال النهار متعهدين بأن لا يكررونها. هم شرعوا منذ زمن لا يتذكره أحد بوضع قائمة ممنوعات أسموها "ما يصلح" وهي الأفعال التي لا ينبغي أن تقترف وقت الغروب. أولها النوم ثم الغناء، التصفيق، الصفير، الصياح بصوت عال، والشجار. ولكن أكثر ما يثير فرح الشياطين عند الغروب هو النظر بالمرآة.

– لا تنظر بالمرآة عند الغروب أو تتجرأ فتمشط شعرك أمامها، عندها ستكون العاقبة مضاعفة!

ربما كانوا يخافون أن تكون هذه الأفعال هي آخر آثارهم في الحياة وهو ما سيبقى طازجاً في ذاكرة عزرائيل، أو أنهم يخشون أن تزعج هذه الأفعال ساحب الشمس فلا يعيدها إليهم صباحاً. القرويون عموماً، غير واثقين من أمرين، عودة الشمس التي تغوص خلف نهاية الأرض، وعودتهم من النوم. وبعد الغروب يسيح الليل ببطيء حزين مثل مواء قطة يتيمة ليغمر القرى فيكون أكثر أوقاتها وحشة. يبدأ الليل بدموع الضوء الشاحب لفتائل الفوانيس النفطية التي تضيء مرتعشة بخجل، تضيء لا أكثر من موطئ القدم، ثم يشح الضوء سريعاً وتتعب الأحاديث وتتصاعد التثاؤبات من الأفواه، ليحل النوم الذي يشبه موتاً صغيراً، عتمة ثم خمود. ذلك هو الليل

إلا إذا أسعد الحظ القرية ورزقها بمن يجيد سرد الحكايات. خاصة ليالي الشتاء الطويلة الباردة كانت تجبر القرويين على التجمع حول كانون الحطب المتقد وتمضية الوقت بالأحاديث. كانوا يتساهلون في قبول الراوي، شرطهم الوحيد هو أن يكون حائزاً على أدنى قدر من إجادة فن السرد، أي أن يحسن الربط بين أجزاء قصته ويشحنها بالأحداث والجمل المشوّقة. المصداقية تأتي بالدرجة الثانية، وأحياناً لا حاجة لهم بها أبداً، فما الضير أن تكون الحكاية حدثت فعلاً أو لم تحدث؟ الأهم أنها تسد الفراغ المريع بين غياب الشمس والنوم، دون أن تثير تثائب المستمعين مللاً. عموماً، لا تخلو قرية من ثلاث ضروريات: شيخ دين، مجنون، وكذاب، هؤلاء الثلاثة هم عناصر مساءات القرى! وقد يختصر الثلاثة بواحد يجمع مهاراتهم ولكن، أسعد القرى شتاءً، وفي كل الفصول هي تلك الموهوبة حكاءً أو قصاصاً يمتلك قدرة إجبار المجتمعين على التفاعل مع ما يحكيه. وفي كل الأحوال، حتى لو لم يتوفر الحكاء الموهوب، لابد من وجود من يقص. المشكلة المستعصية أن أهل الهور قليلون، وهم لصيقون بديارهم، نادراً ما يغادرونها، وإذا تركوها فهم يسافرون من قرية الى أخرى مماثلة، ومن هناك يحاولون تسقط الأخبار والحكايات ونبش ذخيرة مضيفيهم عسى أن يوفقوا باقتناص حكاية أو نادرة يجعلونها موضوعاً لليال شتائية باردة. لكن الناس هنا متشابهون، متماثلون بأيامهم ولياليهم، لديهم ذات الحكايات التي لا يود أحد تكرار سماعها، مثل حكايات عليّخ:

عليّخ، كبير، وقوي، قادر على الحاق الهزيمة بمئة خنزير مجتمعة. دخل مرة معركة عشائر وعاد لأهله وقبل أن يجلس قال لأبنه أحس بحكة في ظهري انظر ما به، لعلها شوكة..

نظر الإبن فصاح:

– هذه فالة مغروزة بظهرك!

وكان عليّخ يتشمس ذات ضحى قليل الرياح، ورأى عشرة نوتية يستميتون من أجل سحب سفينتهم الشراعية التي رست في مياه الشاطئ الضحلة فقام من مكانه، أمسك بالحبل ووضعه بين اسنانه وبحركة واحدة من رأسه قذف السفينة في عرض النهر!

ثم يأتى صوت من مكان معتم:

– أستغفر الله، يقولون، استعصى على ملك الموت أن يقبض روحه قبل شهر من الصراع معه!

– استغفر الله العظيم! هذا كفر، لا عليّخ ولا الأكبر منه يستعصي على ملك الموت ورب العالمين!

زهرة، اين أنت؟ هل مازلت يا زهرة تتذكرين صحين؟ كيف لا؟ هل ننسى هذا الغريب الوحداني الحكواتي ذي العينين الصفراويين؟ لم يعرف أحد من أين أتى لكن القرى كلها تشترك بعائدتيه لها ولا يتحرج هو من الحلول ضيفاً الى أجل غير محدد على أي بيت! حكاياته كثر، دلف مرة بقامة منتصبة تلفها صاية جديدة تنتهي بعقال غليظ، لباب مضيف قرية بعيدة فاستقبله صاحبه بالترحاب كأي خيّر من أخيار اهل الهور. بدأ صحين بعشرين جملة سلام وأسئلة مجاملات مهذبة حفظها مرتبة بدون تلكؤ نتيجة خبرته الطويلة في القرى ومضافاتها. طفق يسأل عن أولاد القرية وسلامتهم، وعن حال الماء في السواقي، وصحة الجواميس، وموسم الحصاد المقبل، ولكنه بدا أمام مضّيفه بعد هذه المقدمة الرصينة زائغ العينين شارداً ففكره كان مشغولاً يتيه خارج المضيف. هناك، في الباحة، على مبعدة خمسة أمتار من المضيف بدأت حكاية موازية حين نظرت الدجاجة بريبة الى قدر الماء الذي قارب الغليان فأحست بشئ! حدست أن عمرها شارف على الانتهاء إذا لم تسارع في طلب النجاة فالقدر ينتظر جسدها المنتوف من الريش في بداية لرحلتها المأساوية من عالم الهور الأخضر الى بطون أهله. لم تهدر الدجاجة وقتها في حساب الإحتمالات ففرت من قفصها ناثرة ريشها وقوقأتها الخائفة تملأ الفضاء. كان الضيف يتابع باهتمام الدجاجة المرعوبة التي اوعز المضيف لابنته بمسكها. لم تنجح العملية! وتعذر على الفتاة محاصرة الدجاجة والإمساك بها فجلست متعبة، خاف صحين من أن تحرمه حجة تمرد الدجاجة على قرار الذبح

من غداء شهي فلم يصبر. وضع عقاله على الأرض ونطَّ من مكانه راكضاً وراء الدجاجة. عرف المضيّف أنه أمام شخص خفيف عقل لا يستحق دم الدجاجة المسكينة وأوعز لابنته ان تنهي المطاردة بسلق بيضتين له! هل كان صحين مجنوناً؟ لا يجرؤ أحد على قول ذلك!

حدث القرية الاســـتثنائي هو يوم قدوم ضـــيف من مكان بعيد لم يروه! كانوا ينبهرون بكل قادم من خارج الهور، وعلى الخصـــوص من جعلته العســـكرية يرى عجائب الحياة، المدينة، والجبال والقطار، والبايســـكل، والبنايات العالية التي يستحيل أن ترى نهايتها الصاعدة للسماء دون ان يقع عقالك من رأسك على الأرض!

وفي أحيان نادرة، قد تحدث المعجزة وتخلق القصة نفسها بنفسها مثلما حدث لمحيبس في السنة التي رأى فيها العجائب في الولاية فسموها باسمه. كان محيبس ساكن أقصى صريفة في السلف، غادرها الى الناحية لجلب دواء فدخل الجنة. تخطى حدود الهور مرة واحدة ومع ذلك صارت هذه المرة اليتيمة علاّماً يفصل بين السنين، فمن ولد في تلك السنة ولد في سنة محيبس، بل أن بعض مواليد القرية الذكور لتلك السنة حملوا إسمه! كيف حدث ذلك؟ هو نفسه لا يدري، نهض ضحى أحد الأيام من نومه، فوجد نفسه خارج صريفته نائماً في قصر نظيف منيف! قصر كل شئ فيه يلهث نصاعة ونعومة، لاحر ولابرد ولا حرمس ولابعوض

ولاذباب. كيف يمكن له أن يفسر الأمر؟ لا تفسير غير أنه مات ودخل الجنة، غير الجنة لا يمكن لأي ظرف أن يعرّفه على هذا النعيم! نعم، عبر يوم الحساب بنجاح لا شك، تأكد من ذلك حين رأى نساءً جميلات يرتدين البياض ويتحدثن مع بعضهن بهمس رائحات غاديات على بلاط أملس لمّاع، ورائحة خاصة لم يألفها من قبل قد ضاعت في أروقة المبنى فرفع يديه شاكراً ربه الذي رزقه الحور العين اللاتي سمع قصصهن من شيخ الهور مطشّر. أراد أن يتذكر آخر لحظة له في الحياة، كيف مات؟ هل مرُض؟ قُتل؟ أم مات موت الله؟ أراد أن يستحضر النائحات ولطمهن، أي منهن نعته بحرقة أيهن تشاغلت عنه؟ ذلك ما كان يقض نومه بل وكل سكان الهور، من الذي آلمه موتي؟ إذ يكفي أن يترك غيابه لوعة في قلب ودمعة في عين. لكنه لم يفلح سوى في تذكر نفسه مغادراً قريته الى الناحية، كان يصارع الم مثانته التي تضخمت لسبب مجهول فهل مات بسبب ذلك؟

"رزقتني الجنة ياربي وأنا خالدٌ اتجول في أروقتها الى الأبد! الجنة ذات الأعناب والأرطاب، والعسل، والحور الغيد. من أتى بي الى هنا ولماذا أنا لوحدي؟ من ألبسني هذا الثوب الأزرق؟ هل هو ثوب البركة؟ وأية حسنة تلك التي جعلتني أنام على سرير نظيف ومرتب في هذا القصر بالجنة، انا الذي ما جربت بعمري فراش القطن؟ لم يسألني حتى الآن أي ملاك، هل أطمأن الى أنني خلصت من محاسبة منكر ونكير؟ نفذت من

السراط المستقيم؟ وما هذا الخيط المربوط بعضدي؟ لعله هو السراط المستقيم؟ ربي إذا كنت في الجنة أحمدك وأشكرك ألف مرة، بس جنة بلا ناس ما تنداس، صار الضحى وما رأيت غير الحور أحداً، رأيتهن يتهامسن هل كن يسألن عني؟ أين أبي وأخي حرّين وجدتي شلتاغة التي لم تفتها صلاة صبح بحياتها؟ معقولة كل معارفي بنار جهنم؟ معقولة أن أكون الوحيد من آل مريبط المنفرد بأعمال حسنة؟ بل من بين كل أهل الهور؟"

تشجع وقام من سريرة وخطا ببطئ واحتراس بإتجاه شباك الجنة. كانت غرفته في الجنة عالية كأنما على جبل. ومن هناك أشرف على تقاطع دربين من دروب دار الخلد. عندما نظر الى الأسفل كاد قلبه يتوقف، لأول مرة بحياته، او بمماته، يرى نفسه في مكان مرتفع والناس تحته صغار مثل كلاب أو خرفان فزعة. دنا أكثر من الشباك فرأى أشياءً دابة تتمارق من الشارعين بسرعة الطير، وفي هذه الأثناء أمسكت بكمه كف فكاد يسقط على الأرض رعباً.

محيبس لم يعرف أنه لم يمت بل نجا من الموت بالصدفة! ولم يكن يدرك بعد أنه وصل هذا المكان بدون علم أهله. نقلوه الى مستشفى المدينة عندما سقط مغمى عليه من الم المثانة وهو في القارب البخاري ولم يعرف الموجودون كيف يتصرفون معه. موظف إبن حلال، كان في طريقه الى

القضاء أشفق عليه ونقله بسيارته الى المستشفى ثم أحالوه الى المدينة وهو لا يعي شيئاً. عندما أفاق من التخدير بعد العملية الجراحية التي شقت مثانته لكي تخرج منها نصف كيلو من الحصى المتكلس، كان الطبيب يراقبه دون أن ينتبه له، ورآه يفتح فمه الكبير على سعته حابساً أنفاسه محدقاً بالمنظر المنداح تحت ناظريه غير مصدّق.

عاد محيبس للهور بعد اسبوعين ليتجمع حوله سكان ثلاث قرى يستمعون بإنبهار لقصصه العجيبة عن كثرة الناس في الولاية مثل يوم الحشر، وديرة لا تأكل السيّاح، وقصر ليس به دجاج ولا خرفان، يطبخون فيه بدون مطّال.

بعض القصص لا يعاد قصها الا في المناسبات الحزينة كتجمعات العزاء، كقصة مناتي التراجيدية التي تشبه واحدة من حكايات ليالي عاشوراء: روى مناتي مرتجفاً وأهل القرية يحملقون به غير مصدقين انه رأى في منامه سيداً بعمامة خضراء أتاه على فرس بيضاء متمهلة وهمس بأذنه أن يزور كربلاء على فرس مثل فرسه بدون رفقة أحد، قبل أن يحين موسم قص التمر فيكون أول زائر!

الأغلبية رأت في اختيار مناتي لهذه المهمة المقدسة علامة خير للقرية وتشريفاً شخصياً له لم يحض به حتى الأن أي كان. فهو سيكون أول

زائر في القرية. ولم ينفع مع هؤلاء رأي الشيخ الذين استدعوه للمشورة وهو العارف بوضع مناتي وعدته، وقلة حيلته، وتواضع قدرته:

– لا يكلف الله نفساً الا وسعها، ويريد بكم اليسر، والحلم لا يعوض عن حكم الباري سبحانه..

ردوا عليه:

– لا شيخ، هذا الكلام غير مقبول، رأي السيد مطاع، ومناتي لا يمكن أن يخاطر بعصيان أمره!

– الله فوق السيد وفوق كل شئ يا جماعة، إستهدوا بالرحمن! وين مناتي ووين كربلاء؟ المسكين ما زار الناحية، لايعرف رأسه من رجليه!

– ونعمَ بالله لكن الله لم يأت لمناتي بالحلم لينهاه!

– أستغفر الله! هذا كلام؟

وقع مناتي بين نارين. نار الحلم والخوف من عاقبة عصيان الأمر، ونار السفر الطويل الخطر والذي لا عهدة له بمثله وبينهما أمل ضعيف واه أن يصل كربلاء ويعود منها بلقب زاير! نار السيد الذي خوّفه من معصية لا قِبَل له على ردها والشيخ الذي التمس له الأعذار كي يتنصل من

المهمة. لم يحسم أمره وتردد، الا ان السيد صاحب الفرس البيضاء نفسه زاره في الليلة الثالثة، وكان هذه المرة راجلاً بدون فرس ووجّه له نظرة حارقة دون كلام فقفز مناتي من فراشه وهو يصيح:

– دخيلك مولاي أمهلني يومين!

بسرعة، أنفق كل ما أدخره، ليشتري الفرس البيضاء وودع أهل القرية باكياً واعداً كل صغير بعلق أخضر يشده على معصمه فلا يحسده بعدها أحد.

لكن مناتي لم يعد من سفره أبداً بل عادت قصته بعد عام من رحيله لتقاسم زوجته وأبنيه نواحهم الذي كان ينطلق بعد كل مغربية تعودوا عندها الجلوس معه حول طبق الطعام. أخبرهم تقرير شرطة الناحية الذي لم يفهموه الا بمساعدة ثلاثة مترجمين تولوا نقل التقرير من الفصحى للهجتهم التي يعرفونها:

مناتي قتل في أول مدينة يراها بحياته بعد مشاجرة عنيفة، مشاجرة يعني معركة مع شخص. قال المترجم.

بعد أن وصل المدينة، وطاف الشوارع ورأى البنايات الكبيرة العالية على جانبيها حل المساء ولم يعرف أين سيمضي ليلته رأى داراً كبيرة عامرة كان صاحبها قاعداً على دكتها العالية بادره بالسلام والترحيب فرد سلامه بأفضل منه وكان الرجل شهماً ومضيافاً الح عليه بالاستراحة وتناول

الطعام والمبيت فحدس انه في حضرة شيخ الحي. هذه هي المدينة التي خاف منها مناتي وخشيها لم تكن أقل كرماً.. هذه هي إفادة مناتي. أما الرجل صاحب الدار فقال انه صاحب فندق وقد دعاه كزبون عندما رآه ينقل بصره في المباني فحسبه باحثاً عن مأوى، لكن المعيدي، وهذا هو تعبير التقرير، حسبَ الفندق مضيفاً مجانياً وعندما طالبه بالأجور صباحاً هجم عليه بمكوارة القيري فالقاً رأس ابنه. اتصل الرجل بالشرطة فاحتجزت مناتي ثم أطلقت سراحه، لكنها وجدته مقتولاً بعد ليلة قرب فرسه البيضاء، وسجلت القضية ضد مجهول..

لا يمكن أن يقتنع أهل المدن، ولو أتيت لهم بأبلغ الأدلة والبراهين أن أهل الهور ليسوا بسطاء وليسوا ساذجين كما يتصوروهم ويصوروهم. فللمدينة لغتها وقيمها واساليبها وللهور لغته ورموزه ونمط حياته الذي لا تفهمه المدينة. ربما كانت القرية هي طفولة المدينة والشرخ العمري بينهما مثل الشرخ بين الطفولة البريئة والنضج الحياتي أو مثل الفرق بين لعبة الطفل غير الهادفة لشيء، وتمثيل الممثل الكبير الهادف لتغيير قناعات معينة! الفرق بينهما مثل الفرق بين المادة الخام والمصنوعة منها، بدون القرى تموت المدن، بل لا وجود لمدن بلا قرى ولكن المدن لا تعترف بذلك! أهل الريف بدورهم يصمُون المدينيين بالسطحية والرخاوة والبطر..ربما بسبب هذا الإجحاف.

عندما كان الشيخ يعقد مجلسه السنوي، وهو مجلس يطوف القرى بمواسم محددة بقصد جمع ما يمكن جمعه من تبرعات، كان القرويون يحاصرونه بأسئلة صعبة لا يستطيع الإجابة عنها حتى شيوخ المدن الكبار. حتى رسن المخبّل كان يدحرج أسئلته المغلفة بالمزاح لترتطم بعمامة الشيخ فتطيح بها غالباً. نعم، شيوخ تهاوت من وقع أسئلة ريفيين لا يلفتون اهتمام حتى أولاد المدينة. ورغم لغتها الهورية البسيطة الا أن غالبية الأسئلة يمكن ترجمتها الى العربية الفصحى بسهولة وسيتبين أن رسن المجنون مثلاً، كان فيلسوفاً وميالاً الى تسفيه المعضلات الكبيرة! والا هل تختلف أسئلة وحكايات الفيلسوف عن حكاياته وأسئلته؟

– مهودر مات ودفنوه ولكنهم وجدوا جثته بعد خمس سنين في العراء!

– كيف مات ودفنوه وكيف وجدوا جثته؟

– الله أعلم، لكن القصص تنتقل من الآباء للأبناء، وأنا سمعتها وما على الرسول الا البلاغ، إذا كانت القصة لا تعجبكم دعوا الشيخ يحكي لكم بديلاً عنها..

وكان الشيخ معروفاً بحكايتين إثنتين بليدتين عن بهلول الكوفي يعيدهما في كل مرة وفي كل قرية حتى تهرئتا ولم يبق منهما ما يمسك..

– لا، رسن بروح جدك كمّل.. الشّيخ تعجبه حكاياتك!

– إسمعوا إذن، كانت ذنوب مهودر كثيرة على ما يبدو، فذهب الى جهنم بدون تأخير، لكنه أثناء التعذيب المتكرر بالنار كان يصرخ بفزع:

– ربي ما اريد غير شوية برد، لا أريد لا جنة ولا أواني ذهب ولا حور عين برد يطفئ هذه النار! جلدي إهترى!

إستثارت هذه الاستغاثات المتكررة ضجر ثم شفقة الملائكة فتوسطوا له وحرروه بشرط أن يعود لأهله في الحياة الدنيا ويحذرهم من هول عذاب النار، ويقص عليهم ما لاقاه.. خرج مهودر بملابس القبر التي أكلتها الأرض يرقص فرحاً وهو غير مصدق وكان الصيف بأوله. مشى ومشى ولكنه لطول المسافة أدرك الشتاء ولم يصل، ثم مات متجمداً من البرد.. فعاد الى الآخرة متهماً بالإخلال بالاتفاق، ليرجع من جديد بلا رصيد من الحسنات.. وقف أمام الملائكة مخذولاً فقالوا له:

– لم تبر بالوعد! ولم تحذر أحداً هناك في الدنيا!

– لكني لم أصل..

هنا يتدخل أحد الحضور، الذي سمع الحكاية من قبل، لمنع رسن من اتمام قصته فنهايتها ستثير حنق الشيخ وأهل القرية على حد سواء. لم يسمع القصة حتى نهايتها سوى عدد محدود من الفتية، لكن مزهر وبدر كانا يدافعان عن المجنون، فهي قصة خيالية ولكنها ليست كافرة.

– خُلق الانسان ليسأل فكيف يكون السؤال كفراً؟

قال بدر مستأنفاً ما يعتقد ان رسن كان يقصده عن عائد من جهنم ليبلغ الأحياء فظاعات ساعة الحساب ويحذرهم من مغبة عصيان أوامر الله ولكن رسالته لاتصل للمقصودين..

ويواصل بدر:

– ولو تابعناها حتى نهايتها سيكون معنى سالفة رسن هو: لماذا نسافر الى الآخرة هذا السفر الغامض؟ لماذا خُلقت الآخرة بعيداً عنا؟ لماذا لا يُترك الإنسان يعيش سنيناً في الدنيا ثم يُحاسب على أعماله بعد هذه السنين، علناً وأمام الناس فيذهب الكافر للعيش بقية عمره على الأرض في النار أما الصالح ففي الجنة على الأرض؟ بهذا يمكننا زيارته ورؤيته بدلاً من أن يترك طعاماً للدود؟ اليس المقصود أن يفهم الجميع الدرس؟

– أستغفر الله هذا عقلك انت بدر لاعقل هذا المجنون أستغفر الله.

– وليس على المجنون حرج.

كان بدر يرد، لكن أهل القرية يتهمون رسن بالكفر لسبب آخر فهو لا يصلي!

– كيف لا يصلي؟ هو أكثر الناس سجوداً!

– نعم ولكنه لا يصلي لله بل للطنطل، سمعناه يرتل غير ما نعرفه من آيات ثم يستعطفه كي يزيد منسوب المياه!

وكان رسن نفسه يرد عليهم هذه المرة:

– هو شنهو الطنطل؟ أحد شافه؟

– لا.

– بس كلكم تخافون منه!

وهنا يتدخل الحضور مرة أخرى لمنع رسن من إتمام أسئلته التي قد تدفع أهل القرية لقتله.

كويظم مثلاً كان عسكرياً، لكن، ليس كل من صار عسكرياً أضحى قادراً على إمتاع القرية بقصصه عندما يعود بإجازة. خذ جبر مثلاً، عاش سنيناً في منطقة الحدود مع إيران من الأعلى للاسفل، وتنقل بين مدن شتى، لكنه ينهي إجازته دافناً نفسه بحضن امرأته، لا يراه أحد الا ساعة قدومه ويوم عودته.

كويظم، كان قاصاً فطرياً. بعد كل إجازة يتحف القرية بقصة مما رآه من عجائب المدينة. هذه المرة عاد من وحدته العسكرية ويده اليمنى مربوطة بقماش أبيض الى رقبته، ولم يعرف أحد ما الذي حدث له:

– بروح ابوك كويظم تكلم ما الذي حدث؟ هل جُرحت؟ تعرضت لحادث؟

كان كعادته يرد على أسئلتهم بعبارة:

– قصة طويلة..

فيزدادون فضولاً لسماعها، لكنه يمانع ثم يشترط ألّا يقاطعه أو يسأله أحد فيقص:

– في منتصف ليل الشتاء البارد والثلج ينهال على المعسكر استدعاني الآمر فدخلت وصرخت:

– نعم سيدي بخدمتكم!

– كويظم، تعرفني لا أثق بغيرك، شوف ذاك الجبل العالي؟ أسقطنا قبل قليل طائرة للعصاة، إبني السبع خذ هذا البغل وأريد منك الخبر قبل موعد التئام الجنود في ساحة العرضات. أما أن تأتيني بالطيار مكتوفاً أو مقتولاً أو تأتيني بالطائرة، بدون ذلك اعتبر نفسك ميتاً!

– نعم أمرك سيدي!

صحت بكل صوتي!

وركضت الى البغل فحللت رباطه، أخذت ثلاثة شواجير رصاص إضافية وبدأت تسلق الجبل، أصعد بالظلام والسماء تقذفني بالثلج، أنتم لم تروا ثلج الجبال! ثلج ينزل على رأسي قوالباً، وأنصافاً، وأرباعاً، وقطعاً مثل المطّال لكنه ثقيل، ثقيل جداً. ضربت قطعة رأس البغل فشقت جبهته

وكاد يسقط على الأرض. مرت ساعة ونصف ولا أثر لشيء، ثلاث ساعات وأنا وبغلي نضرب في عمق العتمة وأصوات الحيوانات المفترسة من ضباع وأسود ونمور وقرود وذئاب وخنازير وفيلة وزرافات وحيتان تصل لأذنيّ البغل فيجفل ويكاد يلقيني من علو الجبل، كيف سأعود للآمر؟ حتى البغل تعب وبدأت خطواته تثقل، كيف سأعود بدون أي خبر عن الطائرة؟ راحت عليك يا كويظم! قبل الفجر سمعت صوت تكسر شئ! دعس البغل على شئ وتكسر تحت أظلافه، هل هو جوز؟ لا هذا ليس وقت الجوز، قلت لنفسي سأنتظر هنا حتى بزوغ خيوط الضوء الأولى. تعرفون ماذا وجدت؟

– ماذا؟

– لن تصدقوا وليتكم كنتم معي! وجدت طائرة ساقطة وقد تناثر بعض من ذيلها وجناحيها على الأرض وهو ما كان يتكسر تحت أظلاف البغل. لكنها لم تكن طائرة مثل التي سمعنا عنها، كانت مصنوعة من حامض حلو وجكليت وحلاوة تمر!

– عجيب!

– التقطت قطعة ووضعتها في فمي، ثم أخرجت الحربة وبدأت تكسير الطيارة وتحميلها على ظهر البغل! لكن الحيوان لم يتحرك! سلخت جلده بالسوط، فبقي على وقوفه، أمسكت به من اذنه وصرخت به:

– لماذا لا تتحرك؟ لا وقت لدي، الآمر والسرية كلها تنتظر أخباري!

فصاح البغل بي باكياً:

– كافي قسوة سيدي الله يخليك!

رد بعض المستمعين مستغربين:

– عجيب! البغل يتكلم!

– وأي كلام؟ أول الأمر استغربت مثلكم، كيف يتكلم البغل؟ سبحان الله! لكنه مسح دموعه وقال وكأنه صار إنساناً وليس بغلاً:

– يعني سيدي كل هذا التعب والصعود، والثلوج فلقت رأسي، ولاحصة لي من هذه الطائرة الكبيرة؟ اليس ذلك حرام؟

أها، البغل مشتهي حلاوة وجكليت يا جماعة! هو ايضاً خلقة الله، رأيت غرّافة سائق الطيارة على الأرض، كانت كلها من الجكليت، فدسستها بفم البغل الذي التهمها بتلذذ..

– غرّافة؟

– كما سمعتم، غرّافة، أنت في القارب تغرف الماء فيتحرك قاربك، سائق الطيارة يغرف الهواء تطير الطيارة!

– سبحان الله! كنا نظنها تطير من الله!

– المهم، عندما أكل البغل الجكليت انشرحت نفسه، وفي طريق العودة ابتسم قائلاً:

– سيدي، في حياتي كلها لم أر مثل شجاعتك وطيبتك، بصراحة هذه المرة الأولى في حياتي أفطر جكليت وحلاوة ونستلة بدل التبن!

ثم قص عليّ البغل قصة حياته، قصة حزينة للغاية تشيّب الرضيع، كان يحب بنت عمه، حاولتُ أن اصبره وأواسيه فختم القصة بأغنية هلي لحضيري ابو عزيز. كان يغني ويبكي.. المسكين.. لكنها قصة طويلة سأرويها في المرة القادمة، المهم وصلنا الموقع قبل اكتمال توافد الجنود على ساحة العرضات. لم أكد أحل حمل البغل حتى أتى الآمر متلهفاً وخاطبني:

– هذا كويظم أكيد نفذت المهمة!

صرخت:

– نعم سيدي أتيت لك بالطيارة محطمة، لكن الطيار هرب قبل أن أصل!

– والله سبع كويظم.. أفتخر بك!

ثم التفت للجنود الذين بدأوا التوافد على الساحة وقال:

– إذا غبت فكويظم مكاني!

بقيت السرية تأكل من حمولة طيارة التمر والحلاوة والجكليت الى أن انسحبنا من موقعنا بعد شهر!

– قصة عجيبة، لكنك لم تحك لنا عن يدك؟ ما الذي حصل؟

– أها.. صحيح، هذه حادثة بسيطة، نظّموا لي عرضاً عسكرياً ومن طول فترة رفع يدي لرد تحية الجنود صار عندي تشنج..

يلتفت بدر لمزهر هامساً باذنه:

– لو قدر لكويظم أن يولد في اوربا لكان من أعظم كتاب الرواية الساخرة، أنظر كيف استولى على عقول المستمعين وجميعهم يعلم أنه يخدم في حامية الزبير في البصرة. لاجبال ولا وديان ولاطائرات ولاثلوج!

الحب وساعة الشيطان

أحب مزهر الهور وكائناته لكن حبه الأكبر كان زهرة! هي شـــهقات شــتلات البطيخ، ورائحة طلع النخيل. هي وردة الصــبا، تينة الصــباح الندية، ويقطينة الضــحى، نسـمة الشـمال ببارح، وضـوع القش المحترق تحت طاوة الســيّاح.. هي ابنة قريته. صــريفة جدها ثم أبيها تقع على ضفة النهر الأخرى وقد بنيت بذات وقت بناء صريفة جده جعاز. عندما كان عمرها سـنة كان يسـميها البزونة لأنها تشـبه القطة الأليفة، ناعمة وجميلة وطرية ورائحتها مثل رائحة الخيار والبطيخ في البســتان وكانت أمها تتركها قربه لأنها تكف عن البكاء عندما تراه فتضحك الأم:

– هذه الفرخة لهذا الفرخ!

كان هو في الثالث الإبتدائي حين دخلت زهرة المدرســة وصــار يعلّمها كتابة اســمها وينظر طويلاً في بســتان عينيها ليحكي لها عما يراه من طيور وغيوم وماء.

لكن زهرة كبرت وكبرت معها المحاذير، ولم يعد أبوها متحمســاً لفكرته القديمة عن ضرورة مرافقة مزهر لها عند الذهاب للمدرسة والعودة منها:

– مزهر ذهب خالص بس الاحتياط واجب..

أجاب أبوها أمها المتعاطفة مع ابنتها..

ثم جاء القرار الريفي المتوقع:

– يكفي البنت تعلم القراءة والكتابة، لا أكثر..

تركت زهرة المدرسة بعد أن تعلمت قراءة الرسائل التي يبعثها أخوها الجندي المعلق في ربيئة قرب السماء، فإلى أين تذهب البنت بعد نجاحها من مدرسة القصب والبردي؟ المأوى الطبيعي هو بيت أبيها ثم انتظار العريس! ولكن لماذا هرولت رزهرة راكضة نحو البلوغ بسرعة؟ بدأت تفاحة وجهها بالاحمرار وتكور صدرها سريعاً مثل إشاعة مرحة، واحلوّ كل شئ فيها.. كل شئ.. صوتها تموسق بأنغام عذبة، فضاء عينيها الساحرتين زاد اتساعا، لكن جولات مزهر الطويلة في رياضهما لم تستمر لأنها بدأت تنكس رأسها..

– زهرة لماذا تغمضين عينيك وتطرقين؟

– أستحي!

وكيف لا تستحي وأسرار ساعة الشيطان قد نثرها عجرش على أهل القرية فعرفها الصغير والكبير؟

حدث ذلك ذات ضـــحى ربيعي حين تثاءب الهور بكســل، تبخر الندى من سطوح صرائف القصب الغافية تحت شمس فتيّة دافئة، فطار على امتداد البصـر الى فضـاء القرية مختلطاً مع لهاث الأغنام والبقر وقوقأة الديكة ليشـكل لوحة بديعة. كانت الدواب على اختلاف أنواعها من بقر، وماعز، وخراف، والطيور وأشـباهها، الدجاج والديكة الى جانب الكلاب والقطط، قد ساحت سارحة في منبسط الأرض بين الصـرائف والماء أو باحثة بمناقيرها الفضولية عن هبات الربيع. وتحت السماء الزرقاء جلس الصـبية يتشـمسـون بعد أن أدوا واجبات حل أربطة الأبقار ونقل بعض الخرفان المريضـة والنعاج الحوامل الى الضـفة الأخرى المعشـوشـبة من النهر. فجأة، دلف سعود بن مريدي الى الباحة وصاح:

جاء الثور..

واقتحم الباحـة ثور أبقع كبير مخيف اهتزت الأرض تحت وقع حوافره. كـان الزبد يملأ خطمـه، والبخـار الحـار ينفث من منخـاريـه والشـــرر الأصفر ينبعث من عينيه الحمراوين، فتطاير الأولاد المتشمسون لائذين بالأشـجار. خلف الثور جاء عجرش وقد حزم دشداشـته البنية بحزام من البردي وبيده حبل قنّب مربوط برقبـة بقرة زائغـة النظرات لا يبدو انهـا كانت تشــعر بالارتياح. بدا بقامته المنحنية كما لو كان منجلاً ضــخماً يمشـــي، كان تعدى الســـابعة والثمانين ومازالت زوجته الثالثة، وهي الوحيدة الحية، تشكو غلمته:

– إذا مات عجرش فبساعة شيطان!

شد عجرش الحبل في وتد مغروز في الأرض وصاح في الثور:

– أزووووو.. أزووووو.

ضحك الأولاد بصخب خافين أعينهم خلف أصابعهم عندما شاهدوا حضن الثور الذي توقف قليلاً، نكّس رأسه كأنه يستمع لصوت ما، ثم ركض نحو البقرة التي استدارت نصف دورة وقد داخلها رعب، ووثب عليها متشبثاً بقائمتيه الأماميتين وراح يرقص على أكتافها والاولاد يصيحون مستغربين. بعد لحظات تحركت البقرة وهي ترغي بألم بعد أن أثقل أكتافها وزن الثور الهائج الذي انزلقت قوائمه وراح يخور. لم تتم العملية كما أرادها عجرش فصاح ثانية لاكزاً الثور أزووووو.. أزووووو..

فردد الأولاد الهتاف، أزووووو.. أزووووو، ركض الثور ثانية وحاول القفز على ظهر البقرة المرعوبة الا أنها حركت رأسها في ذات لحظة وثوبه فأدارت عجيزتها الى اليمين خائفة. فكان لابد من تكرار المحاولة.

أدار عجرش رأس البقرة الى زاوية الزريبة ووضع أمامها كومة تبن ثم رش عليه من كيس بيده بعض النخالة، فانهمكت البقرة بالأكل وعاد يحرض الثور صافقاً بيديه ازووووووو.. وعندها وثب الثور ثانية فمد عجرش يده الى الشيء الذي برز من حضنه ثم لم ير الأولاد ما الذي فعله لكن رقص الثور على كتفي البقرة هذه المرة طال. كان عجرش قد

تحول الى نصف دائرة محملقاً بمنطقة اتصال الحيوانين وكأنه ينتظر شيئاً يسقط من هناك. إستمر اهتزاز الثور على ظهر البقرة المسكينة وكأنه لا يريد الانتهاء من العملية، لكن طاقة تحملها ثقل الثور الضخم قد وصلت نهايتها فلم يعد بمقدور قوائمها الثبات. ترنحت ضاربة جدار الزريبة برأسها مرة، مرتين، وثالثة، ثم هوت على الأرض باستسلام وألم وانفصل الثور عنها ساقطاً على بطنه مطلقاً صيحة ألم مرعبة. لقد انكسر شئ به! واستدار راكضاً الى الوراء وسائل بلون البول يتناثر منه.. ليرش كل من كان قريباً..

غير بعيد عن الزريبة التي شهدت موقعة الثور والبقرة، دمعت أعين الكثير من النساء تأثراً. كن يراقبن المشهد من وراء مشبك القصب بمزيج من الفضول المخلوط بالحياء وقد سترن وجوههن الى أقصى حد ممكن. المرأة أكثر حرصاً من الرجل على سرية العملية وها هي السرية تُعلن بمجانية مبتذلة على أيدي أعمر رجال الهور، عجرش.

صاحت حذّافة بصوت مخنوق:

– الله أكبر ما كان يجب فعل ذلك أمام الخلق، أمام الصغار، والله فضيحة!

ردت إحدى جاراتها:

– خلّ الأولاد يعرفون ما ينتظرهم حذّافة، رمشة عين وترينهم متزوجين.

– والله البنات سيفزعن، هذا يخوّف، أنا نفسي كش جلدي..

عادت الجارة رافعة صوتها هذه المرة:

– حذّافة استحت! وكومة الفروخ هذه من أين جئت بها؟

عقّبت حِتِم:

– كلنا حبلنا وولدنا. بساعة الشيطان ابن آدم ينسى روحه!

ردت حذّافة مستثارة:

– استهدي بالرحمن، الله وصى بالستر، ما وصى واحد يركب على الآخر. البنت ترجف من تسمع بيوم الزفة. الثور كسر ظهر المسكينة. عمري كله ما سمعت بمثل عملة عجرش، الزلمة تسودَن!

لم تقتنع حِتِم فردت ساخرة:

– هو ثور، حيوان، الثور ثور، وابن آدم ابن آدم، الديك والدجاجة كل يوم عرس والناس تعاين بلا حرج..

صاحت حذافة مدافعة:

– الديك يسويها برمشة عين وما يصعد عشر مرات ومثل ابن آدم، لا تخليني اسولف يا أم الرجولة!

– حذّافة، كل الناس، كل بني آدم لو ما ساعة الشيطان ما صاروا. كل الناس منها، الشـــيخ، والفلاح، والســـيد، وأنت، وجدتك، لو ما ســـاعة الشـــيطان ما كنت أمامي الآن. كل الناس تحبها، وكل الناس تســـميها ســاعة الشـيطان والله الشـيطان أفعاله كلها سـود مسـخمة هذه سـاعة الرحمن!

ثم واصلت مخاطبة الأخريات الضاحكات:

– هل سمعتن بتلك المرأة الخجولة التي تشبه حذّافة؟ خرج لها العفريت من القمقم فجأة وقال:

– لديك ثلاثة طلبات، تدللي سأحقق لك كل ما ترغبين!

تفاجأت المرأة ولم تعرف أي طلب هو الأهم حتى تبدأ به لكنها بدأت بآخر فعل حز بنفسها الليلة الماضية فقالت بخجل:

– أيمكن أن..

وصمتت خجلاً غير قادرة على نطق جملتها.

فهمس المارد بأذنها ثانية:

– لديك ثلاثة طلبات، تدللي سأحقق لك كل ما ترغبين!

وضـــعت المســـكينة يدها على فمها ودفنت عينيها بالأرض وهمســـت بصوت خجل مرتبك:

– بلا أمر عليك، يمكن أن تطيل....الزلمة؟

فرد المارد:

– لك ما تريدين، ستنهضين صباح الغد وبعد أول خيط ضوء ستجدين ما طلبت أمام عينيك وكي أحقق لك الطلب الثاني نادني: تعال.. تعال.. تعال، ثلاث مرات!

لم تنم صاحبتنا الليلة التالية حتى الصباح، وعند تبدد العتمة مدت يدها للتـــــأكد من تحقيق طلبها فكادت أن تصرخ! لقد طال.. طال.. لكنها عندما تدرجت معه امتد بيدها ولم تتمكن من الوصول لنهايته.. أشعلت الفانوس فهالها ما رأت، لقد خرج من الفراش، تابعته فاكتشـفت أنه امتد فاجتاز الباب، ركضت فزعة خارجة من الباب الى الباحة العريضة التي تفصـــل الدار عن النهر، فعرفت حجم الفضـــيحة. لقد عبر النهر الى القرية المقابلة ولم تتمكن من معرفة مكان نهايته فصاحت بفزع وبصوت مخنوق:

– تعال.. تعال.. تعال

بلمح البصر انتصب المارد أمامها:

– قولي طلبك الثاني وستجدينه أمامك.

– قصّره بسرعة الله يرضى عليك!

– لك ما تريدين، ستنهضين صباح الغد وبعد أول خيط ضوء ستجدين ما طلبت أمام عينيك، وكي أحقق لك الطلب الثالث نادني: تعال.. تعال.. تعال، ثلاث مرات!

– هذا لا يمكن.. أتوسل اليك.. الآن.. الآن.. قبل أن ينهض الناس.. وننفضح..

– ستحصلين على ما طلبت.

خلال لحظات اختفى المنظر المرعب من أمام عينيها! عاينت شبيه حذّافة المكان بارتياح ثم خطت نحو الباب للتأكد فرأته وقد أكمل انسحابه وصار كل شيء هادئاً وعاد المكان خالياً كما كان. حَمدَتْ الله وشَكرتْه على انقضاء الأمر بدون فضائح والناس مازالوا نياماً. إندست الى جانب زوجها وهي تفكر باستغلال الطلب الأخير المتبقي لكي يرزقهما المارد مالاً وفيراً يعيشان به، ويتخلصان من تعب الهور. لقد فرطت بطلبين ثمينين بتسرعها غير المبرر ولكن الفرصة لم تفت بعد،

طلب واحد يكفي فالفلوس تجيب العروس وتصنع العجائب. ستطلب من المارد ملئ الصــندوق الخشــبي دنانيراً، فئة أبو العشــرة! لكنها قبل أن تنادي المارد أرادت التأكد فكاد قلبها أن يتوقف. لم تجد شــيئاً هناك! لم تعثر على شــئ لا في الفراش ولا تحت ملابس زوجها الغارق في نومه. لقد قصّره المارد الى حد التلاشي! صاحت بقلب مخلوع:

– تعال.. تعال.. تعال

وقف المارد على رأسها:

قولي طلبك الثالث وستجدينه أمامك!

– أعده لوضعه الأصلي!

تعالت ضحكات النساء، فواصلت القاصّة:

– أرأيتن يا بنات؟ ما انهدمت البيوت ولا تعمّرت، ولا تصـــافى قوم ولا تجافوا الا من هذا وخالتكن حذافة العيّارة تستحي!

ضــجت النســاء مقهقهات ولم يعد اخفاء وجود تجمع نســاء القرية ممكناً فانكشف المشهد السري للجميع.. عرف الكل أن جميعهم كان يتلصص من وراء ســاتر ما! وحدهم الأولاد الصــغار كانوا واضــحين يتابعون الواقعة علانية وبدون تحفظ. هل كانت زهرة أيضــاً تراقب المشــهد من

خلف مشبك القصب؟ أكيد، أين تراها ستذهب؟ مرت أيام وهي لا تريد اظهار نفسها لمزهر. كانت تتعمد تحاشيه، حتى عندما عرف بذهابها مع أمها الى مطحنة الناحية فدبر عذراً للقياها هناك، لم يفلح. كان الجرح عميقاً في نفوس النساء. لابد أنها عندما تقف أمامه ستتصور نفسها مكان البقرة التي يطاردها ثور هائج.. مزهر هو ثور المستقبل المنتظر. لابد أنها ستتذكر حين تراه، أحاديث النساء التي سمعتها وهي تحت اللحاف عن ساعة الشيطان وأهوال يوم الزفة!

لم يكن ذلك أول مشهد لساعة شيطان يُرعب مزهر، فعندما كان في بداية الصبا بعيداً عن الأسئلة الكبرى عن الوجود، والموت، والتكاثر، حدثت أثناء عودتهم هو وزهرة من المدرسة حادثة رهيبة.

كان أهالي القرية المجاورة قد تجمعوا على شكل نصف حلقة جانبها المفتوح واجه النهر الذي انحدر على انسياب مياهه الهادئة ماطور مزهر و زهرة. أول الأمر ظنا القرية تعد لوليمة عرس كبيرة، فتوقعا رؤية المشهد المؤلم لعجل مقيد القوائم والذباح ينحني ليحز رقبته. بعد لحظات، إقترب القارب من جرف النهر وظهر لهما كلبان متلاصقان من ناحية العجز ببعضهما وكل منهما يحاول الركض باتجاه معاكس للآخر.. ليلحقه اثنان، يحمل كل منهما عصا ثقيلة هويا بهما معا على ظهر الكائن. لم ير مزهر مثل هذا المنظر القاسي من قبل ولم يفهمه. كان نباح الكلبين المؤلم يمزق الآفاق، مع كل وقعة عصا على ظهريهما. عندما روى

الحادثة الغريبة، عرف أنها ظاهرة الكلاب المتعاصصة وهي ظاهرة شؤم تحدث عند زواج الكلب والكلبة، ولم يُعرف تفسيرها الا بعد سنين. أن الكلب لا يستطيع اتمام العملية بسرعة، فتحتفظ الكلبة به بقوة هائلة داخلها، إلى أن يتم كل شيء، وهو غير قادر على فكّ نفسه منها والهرب.. الذي عرفه وقت طفولته أن زواج الكلاب مستهجن لأنه يتم أمام الناس. الكلب المسكين لا ذنب له، هو لا يستطيع اختصار العملية كما يفعل الديك، مجبر على البقاء طويلاً على ظهر شريكته في بيئة مسطحة مكشوفة لا توفر لهما شروط السرية! مهما يكن، الكلاب فعلتْها لأنها كلاب، بيد أن حادثة الثور استلت شيئاً من روح القرية. لقد انتهك عجرش واحدة من المعاهدات السرية الحساسة، حرمة من الحرمات التي سنها الناس كي لا يكونوا مثل ثور وبقرة، ولكن الم ينتهك المضمّد حرمة مزهر وهو لم يتم الخامسة من عمره؟

قبل ذلك تناهى الى سمعه ان كل صبيان القرية ينتظرون يوماً رهيباً هو يوم الختان، لكنه لم يصدق، أو لم يفهم:

– ماهو الختان؟

– يقطعونه بالمقص!

اقشعر جلده، لكنه نسى الأمر ثم تذكره صباح أحد الأيام حين جاء الخبر راكضاً من القرية المجاورة:

– وصل المضمّد ذو المقص الحديدي وختن كل ذكورها وها هو في الطريق الينا!

شرع الكبار يطاردون صغارهم الذكور مثل الدجاج المطلوب للذبح في وليمة. تصاعد اللغط والصياح، وطار صبيان القرية الى الماء الصباحي البارد هرباً من مقص المطهرجي المخيف. لا حام الا الماء! لم يلق هو بنفسه الى الماء، هرع الى جدته وارتمى بحضنها منتحباً:

– لا أريد الختان!

هذا هو حصـــنه المنيع، فأي جريء ذاك الذي يصـــمد أمامها؟ أية قوة بإمكانها مقارعة الجدة العاتية بتّية وانتزاع الحفيد من بين يديها؟

لكن جدته خذلته هذه المرة:

– غير مؤلم! الختان غير مؤلم لا تخف!

– ما أدراك أنت؟ هل ختنوك؟ هو يقطع بالمنجل فكيف لا يؤلم؟

ضحك الموجودون لكن الرعب لم يبارحه، فعادت الجدة مطمْئنة:

– لا، ليس لديه منجل، الأولاد الصغار وحدهم من يخاف الختان، وأنت ولد كبير. الكبار لا يخافون ولا يبكون..

لم يكن كبيراً.. كلهم كانوا أكبر منه، وعرف أنهم يريدون قصـــــه مثل الباقين! كم تمنى آنذاك أن يكون بنتاً كأخته ساهرة.. كانت هي تضحك من خوفه فلكزتها جدتها ناهية. عاد يسأل جدته:

– لماذا يقصونه؟

كيف يمكن لبتية اقناع حفيدها بجدوى الختان؟

– لأنه طويل جداً لن تحتاج الا لنصفه!

ضـــــحك الموجودون ثانية، أخذته في حضـــــنها فغاص ببحيرة عطرها مســـتمعاً لحكاية من حكاياتها عن الهور ونام ولم يفق الا على لســـعة حادة أحرقت ما بين ساقيه فصرخ وضرب بيديه ورفس برجليه..

صاحت بتّية:

– إنتهى، صرخت مرة واحدة لأنك كبير ليس مثل الأولاد الصغار الذين مازالوا يبكون منذ الصباح..

تصاعد الألم، ولما أراد التبول أحس بحرقة ولم يعرف ماذا يفعل. بكى ثانية وضعوا في عنقه قلادة مضحكة من رؤوس البصل واستبدلوا دشداشته القاتمة بأخرى بيضاء وقبلته نساء القرية لكنه خجل عندما رأى زهرة برفقة أمها التي نثرت على رأسه قطع الحلوى:

– كلللللووووووش.. اليوم طهوره.. نعيش لعرسه ونفرح بيه!

الطهور أي الختان، والعرس. أمران متلازمان. أي جامع يجمعهما؟ المختون والعريس كلاهما يلبس الدشداشة البيضاء، كلاهما يتعرض لامتحان واختبار أسفل بطنه. لو لم يكن رجلاً لما ختنوه، ولأنه رجل سيكون عليه لبس الدشداشة البيضاء بعد حين، حين يزفونه على عروسه. أدار رأسه وأنزل دشداشته التي علموه أن يرفعها كي لا تلمس جزءه المقطوع فأحس بها تسقط عليه فكاد يصرخ الماً. رأى وجه زهرة يتراقص أمامه ولم يتمكن من منع إنسياب دموع الوجع والخجل من عينيه..

حقاً أن كل شيء يدور حول ساعة الشيطان، فحتى شيخ الطناطل كان يملأ لبتية قاربها بالسمك كل مرة بينما تكون هي نائمة مسترخية بأحشاء الهور لأنه بقي يعاشرها سنيناً طويلة. كان يغار عليها حتى من اخوانه فيرافقها حتى مصب النهر عند عودتها من الهور. شيخ طناطل يعاشر

جدته! لم يكن يتخيل كائناً في الدنيا يمكن أن ينام فوق جثمانها الهائل الذي تعوّد رؤيته منتصباً شامخاً..

– كيف.. ستكون ساعة الشيطان إذن؟

– ساعة الشيطان؟ لا أدري. الطنطل لا ينام عليها ولا يتشبث بأكتافها كخروف بأكتاف نعجة.. هو بثقل حمل بلم كامل معبأ بالقصـــب، ســـتموت وتفطس! الله أعلم موحي رآه من بعيد يظهر من عتمة غابة القصب وهو يحمل بتيّة بين يديه مثل من يحمل طفلاً، ويموسق بلحن هادر:

هيهي ها.. يا هيهي ها.. بتيّة نامت هنا.

غشي بصر موحي فخاف وعاد بطرادته محموماً..

– موحي خواف لا يستطيع وصفه لأنه لم ينتظر، رأى خياله لا غير. لو انتظر قليلاً لرأى وجهه.

– لا تلمه، شـــيخ الطناطل ليس لعبة، هل تتخيل كم كبير وقوي هو؟ عملاق ينظف أسنانه بالمردي!

كانت جدته تروي له حكايات لا حصـــر لها ولكنها أبداً لم تحك عن حكايتها مع جده وطنطل الهور وســاعات الشـيطان معه. لماذا لا تريد الحديث عن أيام شبابها وعشقها التي يتناقلها كل أهل القرية؟ فيما بعد، بعد رحيلها بســنوات تســربت قصــص كثيرة عنها، ربما كانت ممنوعة التداول خوفاً من سطوة لسـانها الذي لا يرأف بأحد. وكان أكثرها غرابة أن ســـبب ثورة الطنطل الذي خلس جده، خلطة معجون كانت بتيّة تصنعه بنفسها مكونة من الحرمل، والقرنفل، والمسك، والسِعد، ونباتات نادرة غير معروفة. كانت تضــمخ بها شــعرها الأحمر الطويل، فينبعث منه عطر يهيج حتى الطناطل.

– هي بدون هذه الخلطة ساحرة! الله يساعد الطناطل!

جورية كانت وقت حادثة الثور، مثل غيرها، تراقب المشـــهد من مكان سري لكنها تابعته باكية بحرقة. ربما كانت تحسد البقرة التي لا تتحسر مثلها على زوجها الجندي الذي رأته أسبوعين عند زواجهما، ثم صـارت لا تراه الا مرة واحدة كل أربعة شـهور. كانت خجولة، لكنها كل مرة تفقد اتزانها وثقلها عندما يصلها صوت المنادي مبشراً:

جبر أتى من العسكرية بإجازة!

آخ جبر، كان غالباً ما يباغتها بوصـــوله المفاجئ عند الغروب، وكان عليها بســرعة تجهيز المخفي من جســدها والذي لم تمنحها حياة الهور

فرصة الاعتناء به. تنسى خجلها، وتهرع لتحضر الماء من النهر، وتلم الحطب كي تغلي قدْر الماء. المحنة كانت عندما يأتي جبر في مساء شتائي حين يكون الماء بارداً كالجليد، وقدر الماء الحار كله لا يكفي لمنع جسدها من الإختضاض برداً. للحظات لا غير، كانت تحس الدفء عندما ينسكب الماء الحار على شعرها الغزير ولكنه ما أن يجتاز كثافة الشعر ويصل ظهرها حتى يكون قد فقد حرارته فينحدر على أديمها أقل برودة بقليل من ماء النهر. ثم تجتاح جسمها المندى رياح الشتاء المتسللة من بين ثغرات القصب التي لا عد لها فتجعل أسنانها تصطك. لا أقل من ساعة ستمضيها في الطشت، فاركة ساقيها بالحجر البركاني الأسود القاسي ثم تشرع برش مسحوق دواء الحمام الأبيض ليسهل عليها عملية ازالة الشعر من أكثر مناطقها حساسية.. عذاب.. جبر، عذاب، والوقت يمر بطيئاً. الديرم ودهن المشق وعطر السودان ودواء الحمام، كل هذه المواد والمعدات ستجدها في حقيبة جبر العسكرية. هي أعتدة الثقة التي تشجع بنت الهور حديثة الزواج كي تدلف لفراشها ليلاً فتحصد النتائج المنتظرة لتقوم فجر اليوم التالي ووجهها قد ازدان بابتسامة رضا وجسدها مشحون بقوة تجعلها تدور في البيت مثل طير نشط.. حتى حدود ليلة عامرة أخرى..

من الصعب وصف مشاعر جورية خلال الساعات الفاصلة بين وصول زوجها وموعد الخلود للنوم. القرية صغيرة، وبيوتها المعدودة تجعل

ناسـها القليلين ينشـدون التسـلية ويبحثون عنها في كل زاوية وبأي ثمن، فكيف وقد وصلهم من يحمل حكايات الجنود والجبال والبغال بعد غياب أربعة شـــهور؟ ورغم أن الأمر يبدأ عادة كتقليد مهذب لا مفر منه هو القدوم للسلام على جبر القادم من الجبال البعيدة بعد غياب وسؤاله عن أحوالـه، الا أن العرف، أو قـل الـذوق الفلاحي، لا يراعي للزوجين المحرومين حقوقاً. كانت السـهرة تمتد الى سـاعات بعمق الليل تكون أحشـاء جورية خلالها قد اشـتعلت وانطفأت مئة مرة بانتظار حدوث اي طارئ يفرق الرجال ويعيدهم الى بيوتهم. يحدث هذا كله وجبر ليس من فصـيلة المتحدثين طليقي اللسـان، فهو صـامت، دائم التأمل حتى بدون أن يكون قصـده حمل الضـيوف على المغادرة. تلك كانت طبيعته على الدوام، يسـتمع أكثر مما يتكلم. وفي كل تلك الأماسـي الأُوَل في قريته، كان الضيوف هم المتكلمون. بعد قيامهم تبدأ مرحلة التمهيد التي تنهض بها جورية، أولاً تلبية احتياجات العجوزين وصـرفهما الى فراشـيهما بدون إسـتعجال، ثم اطفاء الفانوس في الكوخ الكبير، والحرص على أن تبقى هي آخر الموجودين هناك حيث ستلفق انشغالاً بسحب كيس طحين، أو معاينة حضـيرة الأغنام. بعدها سـتتسـلل بهدوء الى مخدع الزوجية المعطر بالبخور الهندي وانتظار رحمة الله، أي وصـول العجوزين الى مرحلة الشـخير. عندها يكون تعب الطريق الطويل ومجاراة الزوار قد أخذتا من جبر الكثير من الطاقة، فيشـخر بصـوت عال حتى أن جورية كانت تتمنى لو أتتها الشجاعة لتهمس بأذنه:

-جبر فضحتنا! شخيرك عبر النهر!

لكنها لم تفعل ذلك ولا مرة. كانت تضع أصابعها في أذانها كي تتجنب سماع ما لا تعرف للآن أن كان الأبوان اللذان لا يفصل أجسادهما عن مخدع الزوجية سوى مشبكات القصب وحصائره قد سمعاه! ربما كان العجوزان يسمعان كل شئ لكنهما يدّعيان الصمم. هي تظن أن كل ما يتم ليلاً اثناء ساعة الشيطان في كوخهما الصغير الملاصق لكوخ الأبوين، مسموع. وكانت تختلق صباح اليوم التالي عملاً بعيداً عن باحة الدار كي لا تُجبر على عيش لحظة المجابهة الأولى مع عينيّ عمها أو عمتها بعد ليلة عامرة. خالتها قالت مرة أن وجه العروس، قبل الساعة، يكشف رغبتها، وكذلك بعد الساعة، إذا حصلت عليها ليلاً فسيقرأ العارفون صباحاً على وجهها درجة استمتاعها في الليلة الفائتة! كيف؟ أرادت جورية أن تسأل خالتها لكنها خجلت!

مع قدوم الضحى يكون الليل الماضي قد أمسى بعيداً والناس قد انشغلوا بهموم النهار.. وفي كل الأحوال، تزول آثار ساعة الشيطان بعد عمل ساعتين فلا يمكن لأحد قراءة وجهها! هكذا صرّحت الخالة الخبيرة.

لم يكن الذكاء والفطنة ينقصان جورية فهي قد خططت بصبر وهدوء لنقل موقع كوخهما الجديد ليكون مقابل كوخ العجوزين لا ملاصقاً لهما من جهة الشرق. لقد وجدت تعليلاً منطقياً وإنسانياً لفكرتها:

– الجدار يمنع وصـــول الشـــمس الى مخدع العجوزين.. هذا حرام البراغيث ستأكلهما..

لا، جورية ليست مثل خالتها، كانت على قدر معقول من السيطرة على ردود أفعال جسدها قبل أن تداهم بما يجعلها تضع أصابعها الخمسة في فمها وتعض عليها بقوة. أصـابعها شـريك أسـاس في فعاليات سـاعة الشـــيطان، مرة في آذانها وأخرى في فمها! مرة واحدة فعلتها وأطلقت صراخها كما تشتهي، من أبعد زاوية من أعماقها. كان ذلك عندما رافقته للهور. تلك كانت مرة لا تنســـى! آخ كم هو ممتع وموجع اســـتعادة الذكريات اللذيذة؟

قدم جبر آنذاك في مأمورية عســكرية صــيفية طويلة، وكان عزم هذه المرة على ألّا يفوّت الفرصـة. حتى لا يثير حفيظة أحد، ترك الأمر سراً الى قبل يومين من الموعد، نهض صــباحاً، وصــاح مخاطباً أباه بنبرة هادئة بريئة:

– كم حصيرة قصب لدينا؟

– خمس، أو أكثر بقليل..

ومثل من تفاجأ، ولا كأنه عد الحصـران أكثر من عشـرين مرة، صـرخ جبر كالملدوغ:

– خمس؟ هذا لا يكفي حتى نصف صريفة! لقد اتفقت مع البنائين أن يكونوا بعد اسبوع جاهزين.

كان مشروع بناء كوخ صغير للابن العسكري، يعوض كوخه المتداعي ويحوله الى مخزن تحتاجه العائلة لخزن تمورها ورزها، مشروعاً مؤجلاً بسبب قصر اجازاته، الآن هو الوقت المناسب:

– جورية حضري نفسك، يوم الخميس سنذهب للهور، خذي المناجل للسوق لحدّها، واخبزي عشرة ارغفة من خبز الشعير. الشعير وحده يعطي طاقة عمل ساعات في قطع القصب. ولا تنسي الشبكة هذا موسم البُنّي!

كانت خطة محكمة، ورغم أن جبر لم يفصح لزوجته بنواياه كلها، الا أنها كادت تطير فرحاً حين سمعته. حدست أن رحلتهما المشتركة الى الهور لا يمكن أن تكون من أجل القصب وحده، فتجنبت الاستحمام لثلاثة ايام سبقت الرحلة كي تبعد تفكير عمتها وعمها عن مقاصدهما. لم يكن العجوزان من الصنف السيء، أو الذي يتدخل بأمور البنت الشخصية، لكن جورية كانت تشعر بالحرج كأية عروس!

قبل موعد رحلة الهور بيوم، أخذت المناجل للحدّاد وكيس الرز الى المطحنة. رَشَت إحدى معارفها من قرية المطحنة بست قطع من الديرم كي تساعدها في تدبير خلوة تغتسل بها هناك. لم يستغرق الأمر سوى

فترة انتظار اتمام طحن الرز فعادت نظيفة دون أن يفطن أحد الى ما فعلته!

أزف الموعد، وحان الأوان وكبحت جورية عفاريت الفرح الراقصة في أعماقها. لبست ثوب العمل المتسخ وأطلقت بضع جمل إدانة للهور وحياته المتعبة رأتها ضرورية كي تخفي فرحها بالمهمة. لم تضع لا الديرم على شفتيها ولا عطر ابو السودان على عنقها كي لا تدع مجالاً للشك بأن واقعة كبرى ستقع تحت سماء الهور، لكنها خبأت قنينة العطر تحت دوسة القارب. ما أن وصلا بقاربهما الكبير حافة غابات القصب حتى كشفت نظرات عينيه الجائعتين أن جبر قد أعد نفسه للثأر من حرمانه الطويل.. فتغلغلت الرغبة الجامحة بخلايا الأنثى التي لم تنعم حتى هذه اللحظة بلحظات الراحة التي سمعت خالتها تتحدث عنها..

كل شيء حولهما كان ساكناً، الماء، والسماء، والبردي، والقصب الذي تجاوز طوله قامات ثلاثة رجال مجتمعين.

صنع جبر كباشة ضخمة من البردي طفت على ماء الهور الساكن، وأفرغ عليه محتويات كيس وقود المطّال. القى شبكة الطفافيح على الكباشة، ثم نظفها مما علق بها من أعشاب وقواقع وثبّت قصباتها في قاع الهور. هذا هو فخ الأسماك. فرشت جورية الفراش والأغطية على الكباشة فبدت مثل بساط سحري، حولها مساحة ماء خالية ثم القصب

والبردي وضــرابيط النفاش.. وفوقها تحلق الســماء زرقاء وبعيدة لا ترى أحداً. كانت غابة القصــب مغرية. قصــب طويل قوي. في بداية العمل انزعجت جورية من اندفاع زوجها وكأنه نســـي أن مهمة أخرى تنتظره فقالت:

– قتلت نفسك من أول ساعة.. القصب لايستاهل كل هذا.. صار وقت الأكل..

ثم سألته بدون أن تعي تماماً ما تقصد:

– هل علينا أولاً الأكل أم..

أحمر وجهها ولم تكمل جملتها فهمســت لنفســها مبتســمة وكفها على فمها:

– فَلَكْ طرني..

لكنها تمكنت من تصحيح جملتها بخفوت متلعثمة:

– العمل أو جمع السمك العالق بالشبكة..

فكر جبر قليلاً، نعم قطع القصــب بالمنجل عمل شــاق. هو يريد ملئ البلم الكبير بالقصب، هذا فعل سيمزق عضلاتهما ولربما يصح ما قالته جورية آه النسـوان.. كيدهن عظيم.. إذن ننجز نصـف العمل ثم.. على الأقل إذا أحسسنا بالتعب نقول ان القصب الصالح لم يكن متوفراً..

– نأكل أولاً.. أحس بالجوع، سأرى ما يهبنا أياه الهور..

ضحكت جورية وكأنها قرأت ما كان يفكر به. سمك كثير كان قد علق بالشبكة.. بُنّي وعجد وشلك، إستله جبر من الشبكة والقى به في طست الفافون ثم اختار منه بنّية كبيرة ناولها لجورية التي شقتها والقت بأحشائها الى الماء فتجمعت عشرات أسماك أبو الزمّير الصغيرة حولها، ثم ملّحتها.. ولكن قبل ان تشعل النار ناداها جبر فجأة:

– لا تشعلي النار.. تعالي.. انعل ابو القصب لا ابو أهله!

لقد انهارت الخطة برمتها بعد أن لمح جبر ساقي جورية البضين وهي ترفع ثوبها كي لا يبتل. هذه هي المرة الأولى التي يلمع فيها ساقاها تحت الشمس! لا حاجة له بالأكل الآن، ولا بمواصلة العمل، ولا أي شيء آخر غير جورية التي لقفت الاشارة فدنت ووقفت قبالته، أمسك بها ودغدغها من صدرها فضحكت بخجل وقالت:

– يدي زفرة، كنت أنظف السمكة..

لم يسمع، القى نفسه عليها فسقطا معاً واهتزت كباشة البردي تحتهما بمرح. أبعدت جورية ذراعيها ورفعتهما الى الأعلى خشية أن تلوث كفاها رأسه فوجد في هذه الحركة تسهيلاً له كي يجردها من ثوب العمل القديم الذي ارتدته. وقف عند رأسها، انحنى ماسكاً أكمامها وخلع الثوب الذي كان هو الآخر متلهفاً للخلع فلم يقاوم، ثم مسح يديها الوسختين به.

بقيت بلباسها الداخلي الأصفر ويداها تغطيان حجرها، وجّه نظرة طويلة نهمة لعريها الذي يراه لأول مرة، وهمَّ باستكمال تعريتها .. لكنها صاحت:

– أستحي جبر.. والعباس أستحي..

– ممن تستحين؟ لا أحد يراك غير الله وأنا. أنا زوجك بالحلال. ما رأيت جسدك ولا مرة. كلها ظلام بظلام، ام وابو جبر الله يسلمهم كلّ اليوم بالبيت، وفي الليل نور الفانوس لا يسمح لي التفريق بين الأسود والأبيض..

– أستحي من الله!

– ونعم بالله، هو خلقنا عراة.. لو أراد لخلقنا بثيابنا!

تشجعت جورية بعد أن رأته يتأمل نصف عريها بشغف، فأكملت كشف النصف المتبقي. للمرة الأولى تراه يقربها رغبة بها هي بالذات. كل مرة، من المرات المعدودة التي التقيا بها تحت اللحاف، كانا ينجزان الواجب عمله كما يلزم أن يُنجز. شيء ما في الأمر يشبه تأدية واجبه العسكري، أتى بإجازة بعد واجب عسكري ولابد له من إتمام واجب آخر إجتماعي. في تلك المرات لم تتمكن جورية من تجنب رؤية صورته مع أخرى. إذا أتيت للذكر بأية أنثى سيفعل اللازم معها وجبر ليس استثناءً. تلك هي القاعدة بين الثور والبقرة، الديك والدجاجة وربما بين كل رجل وامرأة.

الآن هي جورية التي ســاقتها القســمة والنصــيب لتكون زوجته، وكان يمكن لأية أخرى أن تكون مكانها. ربما جال ببال جبر ايضـــاً ذات الخاطر! كلا، الرجال لا يفكرون مثل النســـاء. الرجال حوّامون على النســـاء! على أية حال، هي تجاوزت المراحل الأولى المرعبة. في المرات الأولى لم تشـــعر بغير الانتهاك! في ليلة الزفة على وجه الخصوص كان الأمر مريعاً، مؤلماً، ومخجلاً ولم تعرف كيف تم أصلاً فكل ما تتذكره أن جســـدها قد برد وتقلص وإختض، وجبهتها تندت بالعرق وكأن كل المجتمعين في باحة الدار أمام كوخ الزفاف من الضــيوف والمتطفلين والذين تســمع لغطهم، يحملقون بجســدها الذي سـيُكشـف عارياً أمامهم. الكل يترقب افتضـاض بكارتها، ليسـت القرية وحدها بل كل قرى الهور القريبة تجمعت هذا المساء لتشهد هذه الواقعة التي تحدث للفتاة مرة واحدة في حياتها. كل الناس، صـغارهم، وكبارهم، حكمائهم، ومشــاغبوهم ومجانينهم ســيرســمون هذه الليلة في مخيلاتهم صـورة عريها وانفراج ساقيها، سيتخيلون لون ملابسها التي ستمتد كف العريس لخلعها والقائها جانباً، ويطلقون النوادر عنها فهي موضـــوع اليوم، ويتداولون حكايات لا يعرف أحد كيف تسربت لهم وهي قد ولدت في أسرة ليلة الزفاف السرية!

بنت محيسن صاحت بالعريس:

– أنا بشر وينام فوقي بشر؟ لا، محال!

– أســـتغفر الله، هذا كفر، هل هي أشـــرف من فاطمة الزهراء عليها السـلام؟ هذه هي شـرعة الله وليسـت شـرعة بشـر ولا اعتراض على ما حكم الله به.

– الشريفة لا تعط نفسها من أول مرة، لازم يحس عريسها بحيائها.

– المسكينة هي ميتة من الخوف أصلاً مثل الدجاجة قبل الذبح من أين تأتيها قوة المقاومة؟

– الدجاجة قبل الذبح ترفس، تقوقئ، تنقر، تعترض.. المهم أن تبين انها لا تريد..

دنا بدر من المجموعة وقال ساخراً:

– ولكنها في الحقيقة تريد. مجتمع منافق. هي تريد، والعريس يريد وأهلها يريدون، وأنتم كلكم تريدون، وقد ملأتم الدنيا زعيقاً ورقصـــاً وتسمونه يوم فرح، ولكن على هذه البائسة تمثيل دور من لا يريد!

هذا كله ســوف لن يغير من الواقع شــيئاً. الليلة هي الليلة الكبرى، ليلة المخاوف والأفراح، والخجل، واجتماع الكل، ومصــالحة المتخاصــمين، ليلة التناقضــات المتلاطمة مع بعضــها..لا اختلاف على الموعد. بعد المغرب سيتجمع الرجال ويحيطون بجبر ثم يدفعونه الى ساحة الصراع مشيعاً بهوساتهم:

"جبنا لك برنو ما ملعوب بسركيها".

الكل تترقب نتائج اختبار سِرقي البرنو، هل استُعملت من قبل؟ لابد أن يكون جبر هو أول من سحب تروسها! هذا هو اختبار العمر للاثنين، لسلامة سرقي البرنو، ولسلامة سلاح جبر. إختبار أسلحة! هذا ما ستعلنه أول زغرودة ثم قطعة القماش الملوثة بدم البكارة مرفوعة على يد أم العروس..

أما إذا فعلتها الأقدار ولم تنطلق الهلاهل، فترقب، في أكثر الحالات سوءً أن يتحول يوم الفرح الى مأتم، فالبندقية قد استعملت في ظرف ما، ولم يحافظ مالكها على سرقيها نظيفاً حسب الاتفاق! ولا أحد قادر على توقع ردود فعل صاحب البندقية ولا جبر، مالكها المؤقت، والمكلف بتجريبها. ساعتها لن يسأل أحد عن ذاك الذي تجرأ ومد يده الى البندقية الجديدة، فهذا سيترك لقادم الأيام، لهيئة التحقيق التي سوف تجعل الحجر ينطق فتعرف من مد يده للتفاحة المحرمة! المسؤول الأول الآن هو البندقية نفسها! كيف سمحت لنفسها أن تغفو فتترك سرقيها عرضة لعبث العابثين؟ وقد يسمح الحظ بما يمكن من إتمام الفرح، ولو بحده الأدنى، فسيتسرب الخبر بخفوت مطمْئناً أن سرقي البندقية سليمً ولم يلعب به أحد لكن جبر الخجول لم يتمكن من أداء المهمة واستخدام السلاح فأعذروه!

– الرجل غير مجرِب، فقير من أهل الله!

– وهل كنا نحن من أهل الشيطان؟ ومن جرب منا الأمر من قبل؟ حتى الخروف يفعلها بدون تجربة..

أووه، الجنس البشـري عدواني خشـن، والرجل هو رأس حربة العدوان! النسـاء عموماً لا يملن الى التشـهير ببنات جنسـهن، متسـامحات لأنهن يعرفن خبايا الموضـوع وقسـاوته وتعقيده. حتى الثور عندما رأى الكل تصـرخ "ازووووو" لم يتمكن من إنهاء مهمته من المرة الأولى، فما هذه القسوة مع جبر؟

مزهر وبدر إتفقا على أن لا يكررا فعل أجدادهما. هذه فظاعة! هذا إذلال!

بدر كان يقول له:

– كل موروثاتنا دخلت أدمغتنا بالخطأ، كلها انتقلت لنا عبر شـيوخ لا يفقهون شيئاً. ليست فقط هذه الموروثات التي تجعل من ليلة الزفة لعبة مقرفة مثل العاب التسلية، ما فرقها عن لعبة؟ هناك متبارون خلف باب موصـد والمتفرجون يتابعون وقائع التباري وينتظرون النتيجة.. سـمموا حياتنا هؤلاء الشـيوخ، نواه وموانع وبعد ذلك؟ تذهب الى الجنة تأكل ثم تأكل وتشـرب الى ان تتعب فتنام قليلاً ثم تبدأ بفض بكارة اول حورية واخرى وثالثة الى ان تتعب وتنام ثم تنهض وتأكل ثم تأكل وتشـرب الى

ان تتعب فتنام قليلاً ثم تبدأ بفض بكارة رابع حورية وسيتمر ذلك الى ما لانهاية.. بشرفك هل هذه حياة؟

– ومن قال لك أنها حياة؟ هي ممات!

– أنا لا أمزح، هل هذا مستقبل يستحق الالتزام بالأوامر الصارمة في الدنيا لا ولا ولا؟ أجزم ان ثلاثة ارباع ساكني الجنة سيصابون بالكآبة بعد نصف عام وأكثر من نصفهم سينتحر خلال أقل من عام!

كان مزهر يخاف أفكار بدر الجامحة التي تعلو قامته بكثير. لكن من أجل أي شئ كانت واقعة عجرش الذي مزق نسيج حياء القرية كله؟ بقاء النوع! كيف كانت الابقار تتكاثر قبل أن يدجنها أسلاف عجرش إذن؟ لا يبدو أن ذلك كان سهلاً، بل أن من رأى مشهد اغتصاب البقرة لابد ان لا يتوقع استمرار نوع إسمه البقر.. تذكر مزهر كيف سنحت له فرصة الإطلاع على تفاصيل ليلة الزفة وهو صبي كبير يمضي سنته الأولى في المدينة. كان ذلك بذات سنة الثور، صدفة عرس في بيت الجيران دعته للصعود الى سطح الدار من أجل الابتعاد عن ضجة الطبول والأهازيج ومن هناك إكتشف كوة معتمة تطل على نافذة غرفة العرس المفتوحة! وقف تماماً على الشباك الذي لم يتوقع العريس ان شيطاناً سيطل منه على عريه! من هناك كان بوسعه الوقوف على سر الحياة كلها. هكذا يُصنع البشر! تسمّر واقفاً في مكان لا يمكن أن

يشـــعر بوجوده أحد، وتحت بصـــره انداح المشـــهد المثير الذي لم يكن يتخيـل يومـاً أن يطلّع عليـه. تردد أول الأمر فلم يكن يفصـــلـه عن العروســين غير أقل من بضـــعة أمتار علو. كانت العروس التي رآها، مســـتلقية على ظهرها ولم تكن عارية، كانت حيادية الملامح، تمســـك بيدها مروحة يدوية لتحريك الهواء. إستغرب أنها لم تكن مكترثة بالعملية ولا بعريسـها وربما شـجعته حياديتها وتعاملها اللامبالي مع العملية على البقاء في موقعه، فما يراه لا يتفق مع ما ســـمعه عن أهوال هذا اليوم الرهيب وما ينطوي عليه من أسرار. لم ير امامه العروس المرسومة في ذهنـه، العروس المرعوبـة التي يهاجمها عريســـها كذئب متوحش كي يجردها مما ترتدي، ولم ير الفتاة التي تسـتميت من أجل ان لا تكشـف جسدها للعريس الغريب فتتكور على نفسها مثل قنفذ مذعور. سمع مراراً تفاصيل هذا الصراع الضاري، وسمع أن قوة الرجولة تفلح دائماً في بلوغ اربها بعد شـــل قدرة الأنثى على المقاومة لتبدأ أعضـــاءها المنهكة الاســترخاء مســتســلمة ثم ينزاح الســاقان عن بعضــهما مذعنين ليبدأ الاختبار المتبادل لصلاحية السلاحين!

لم ير أمامه غير مشـــهد عادي لامرأة منشـــغلة بنفســـها، فجأة أحس بانقباض في روحه. نعم هو حدث معكّر للمزاج وخيانـة للاتفاق الذي عقده الانسـان مع ذاته قبل آلاف السـنين، فهذه السـاعة يجب أن تبقى سـراً بين إثنين، قدسـيتها أن تبقى بين اثنين لا ثالث لهما، ذلك ما يفرق

الثور والبقرة عن العروس والعريس، لكنه برر لنفسه ما فعل بحجة واهية أخرى أضافها لحجة لا اكتراث العروس، هي أنه لم يقصد رؤية ما رأى بل أن المشـــهد فرض نفســـه عليه. في اليوم التالي عرف مزهر أن العروس كانت مطلّقة وأن هذا هو زواجها الثاني فتبررَ بذلك تماســكها وحياديتها.

كلهم أتوا، كنتاج لســاعة شــيطان، حاصــل تجربة قد تنجح او تخفق، كلهم، جدته، الرفش، زهرة التي رشــحها الهور لكي تشــاركه وقائع تلك الســـاعة المثيرة، كل فرد، تعرف على طقوس ليلة الزفة بطريقة ما، عرضية مسموعة ومتناقلة. جورية مثلاً كانت تستعيد ما سمعته أول مرة عن هذه الليلة الرهيبة، سـمعت مثل غيرها عن بنت محيسـن الحرة كما كانوا يلقبونها لرفضـها أن يعلوها بشـر، وكانت ترتبك عند تخيل نفسـها عروساً، فهل يتوجب عليها أن تتشبه بالحرة مشتبكة مع عريسها القادم كي تمنعه من طرحها على السرير؟ هي نشأت طفلة هادئة مسالمة لا تجيد العراك وكانت تتجنب الخصـــام حتى مع دميتها. كانت تؤجل التفكير بهذه المعضـــلة المســماة ليلة الزفة الا أن الزمن لا يتوقف فقد كان يزحف ماسكاً بها دون أن تنتبه ليضـعها على عتبة البلوغ. فعندما كانت طفلة لم يثر فضــولها الكثير مما كانت تســمعه ولا تفهمه، لكنها في السـنين الأخيرة انتبهت الى أن وراء كل جملة بريئة قصــة قد تكون مخيفة.. عندما سألت مرة:

– ما معنى مشرّم تراجيها؟

أجابوها:

– يعني أن العريس خشـــن، من فرط رجولته قد فتك بالعروس في ليلة الزفّة! جر أقراطها فشق اذنيها، فسال الدم..

آخ، الدم، من الأذنين، دم البكارة، رعب فض البكارة، فقدان البكارة، أهوال البكارة!

كانت تطمئن نفسـها: جبر درويش، مسـكين وهادئ الطبع لا يتجاسـر فيرفع عينيه حتى حين يتحدث مع أبيه، هو مختلف، مخلوق غير مؤذ نعم ربما يكون أكثر كائنات الهور انغلاقاً على نفسـه لا يتحدث مع أي أحد إن لم يبادر هذا الأحد الحديث معه، وليست لديه الرغبة بزيارة أحد غير عمته وقد يكون السـبب أنها خرسـاء، لكن النسـاء يؤكدن أن كل رجل في سـاعة الشيطان يتحول الى عفريت! كلهم، كبيرهم وصـغيرهم! إذن كانت الصورة التي تتأرجح في رأسها آنذاك هي صورة شئ مخيف سـيثقبها، شـئ حاد مسـيل للدماء، ولكنها لم تفهم ما الحاجة لكل هذه القسوة، والدم، وشرم التراجي، إذا كانت العملية لا تتطلب سوى الخلوة:

– البنت العذراء تحمل عن طريق الهواء إذا اختلت برجل ووقفت على بعد قامة منه..

هي وكل بنات القرية، خاصة ذوات الجمال الفريد مثل زهرة، سمعن مئة مرة هذا التحذير المرعب. إذن لماذا لا يقترب العريس منها ويقف على بعد قامة رجل فتحمل وتنتهي الليلة على خير بدون دم وثقوب؟

قهقهت بتيّة ضاحكة ثم صاحت بصوت عال:

– هذا يعني أنكم كلكم أولاد حرام! البنت تحمل من أبيها، والأخت من أخيها ما داموا يعيشون في بيت واحد!

مرة أخرى تتصدى بتية! لا شك، حجة قوية مطمئنة بيد البنات جعلت نساء القرية يعدلن نظريتهن:

– البنت تحمل من الغريب إذا إقترب منها لمسافة قامته!

ولم يوقف بتية هذا التراجع من نساء القرية ولم تقتنع به فردت:

– يا عيّارات ما الفرق بين الرجل الغريب والقريب؟

رائع.. مدهش.. بتّية لا تنتصر الا بالضربة الفنية القاضية، مثلما هزمت الملقب بالذيب لجسارته وقوة حيلته الذي استغل وجودها في أقصى رقعة يابسة من الهور بمفردها فراودها عن نفسها. صدته، لكن الذيب لم يكن متعوداً على رد الطلب فتوجه نحوها ناوياً تعريتها بالقوة فنظرت بعينيه بعمق وقالت له:

– تمهل قليلاً! موافقة لكن لدي شـــرط. يســـمونك الذيب لكنك بنظري لست أكثر من أرنب! هل تنظر لنفسك كرجل؟ أنا لا أراك رجلاً، لنتفق إذا لم تقدر أن تفعل بي، ســـأفعل أنا بك فلدي "واحد" أطول منك ومن أبيك!

وبدأت بالتعري ببطيء وهي تحدق بوجهه بعينيها الناريتين فهمدت قوى الذيب، وانتبه لنفسه مخذولاً ليهرب كالفأر وهي تركض خلفه وتصيح:

– يا ابن العاهرة.. ذَكَر نسوان أنا..

لم تحمل امرأة في الهور غيرها لقبها الذي لم ينافســـها به أحد: ذَكَر نســوان! نســاء الهور، عجائزها خاصــة، موقنات بأن لبتّية "واحد" ليس لأي من الرجال مثله. "واحد" وليس "واحدي" فالواحد للرجال والواحدي للنساء!

– هل رأتها واحدة منكن تســـبح في النهر بحياتها؟ حتى في أكثر أيام القيظ حرارة، كانت تخشى أن يكشف القماش المبلول واحدها الطويل!

– لا خيّة.. الطنطل نحيس شــرط عليها أن لا تكشــف نفســها لأحد، يريدها له، لا يرى جسدها غيره، هي بهذا العمر وجسمها يسودِن!

– استغفري الله أخذنا غيبتها الليلة جمعة!

– والله لا الطنطل ولا ابوه يقدر على بتّية.

مع كل هذه المساندة السيكولوجية التي قدمتها بتيّة للبنات، تبقى ورطة أن يُخلق الانسان بنتاً. عندما كبرت جورية قليلاً سمعت أن الأمر ليس كله الم ودم ومعاناة، بل به لذة غامضـــة! لكنها بقيت فترة طويلة بعد زواجها تتنظر عبثاً حدوث ما كانت خالتها قد بشرت به، وهو ما كانت تسمعه منها من بعيد، وهي تقص على النساء الكبيرات عن متعة ساعة الشـــيطان.. ربما لم تكن مهيئة تماماً لواقعة الزفاف فهي كانت في الخامسة عشر، لكنها تدريجياً بدأت تحس الالفة ثم قليلاً من المتعة ثم اللهفة للقاء. جبر نفسه تغير مع الأيام وبدا لها انه يودها. هو أيضاً لم يكن خبيراً وكان يتصـــدى للعملية كتحد اجتماعي لابد من تجاوزه. كان مفرط الحياء فهو لا ينظر لها ويتعمد تقليل نور الفانوس الى أقل حد. مع الأيام تدرب الاثنان. تتذكر جورية قبيل زفافها كيف بكت بحرقة على ما اعتقدته نهاية عالم الطفولة الســـعيد ودخول مرحلة الاتزان والبلوغ. عاشـــت المرحلة الانتقالية القلقة عندما تتالت على أســـماعها التوصـيات الناهية عن ارتفاع نبرة الصـوت والانتباه لحشـمة الملابس وأدب الحديث مع الغرباء، والتهيئة لفراق بيت العائلة الذي لن يدوم للفتاة طويلاً.. فبيت الفتاة الدائم هو بيت زوجها الذي لابد أن يمتلئ بالصغار..

– صياح الطلق وآلامه هو ثمن متعة ساعة الشيطان.

زادت خالتها الأمر غموضاً ورهبة.

جورية لا تريد متعة ســـاعة الشـــيطان إذا كان الثمن هو الآم الطلق المرعبة، لكن كل البنات خُلقن كي يتزوجن وما هدف الزواج إذا لم يكن إنجاب الأولاد؟ وكيف تنجبين الأولاد يا جورية بدون تلك الســـاعة الشيطانية الرهيبة ثم آلام الوضع؟

– اسموها ساعة الشيطان لأنه هو من ينسيك التفكير بالعاقبة، هو من يزيّن لك الســـاعة ويجعل خلاياك تتراقص ترحيباً ثم لا ترين وجهه ثانية..

آه.. راحت الحياة ومضت، وسوف لن تجد المتعة بأي شيء.. كل أملها أن يرزقها الحظ بزوج لا يتعامل معها مثل تعامله مع جاموســة.. ولكن بعد عودتهما من رحلتهما الرومانسية. تلك المرة التي لم تشبه سابقاتها أبداً.. رحلة الهور.. تنهدت جورية بحسرة:

– جبر كون ما نموت للدوم!

– استغفري الله! هذه إرادة رب العالمين، الموت حق.

– بعد عيني رب العالمين.. يشـــوّفنا كل هذه الدنيا الحلوة.. ويموّتنا.. بيش طالبنا؟

تغيرت مشاعرها وتبدل موقفها كلياً من الدنيا ومن ساعة الشيطان. تلك المرة رأته يريد كل شبر منها، رأته لا يستعجل بدء الرحلة بل يستعد لها بشـــغف. المتعة تكمن في تخيل مجيء الفرح أكثر من المتعة بحلول الفرح نفســـه، ويبدو لها أن شـــريكها منهمك بالتخيل وانتظار ما طال انتظاره..

كان الهور آنذاك، في تلك المرة التي لم تتكرر، خالياً إلا منهما وكائناته الصـغيرة الأخرى من سـلاحف، وأسـماك، وطيور، ويعاسـيب، وبردي، وقصـــب. كان الطقس لطيفاً والســماء الزرقاء صـــافية مثل عين الديك وجبر مطمئن ان لا خنازير تنغص عليه إنفرادته بجورية، فاليابسة بعيدة والماء أعمق من قامة عشـرة خنازير مجتمعة وخلال ثلاث ســاعات لم ير حتى خيال قارب بعيد. لحظات وامتلأ الأفق بالغرانيق، ونعاج الماء، والبجع، واللقالق، والغاق، ومالك الحزين.. هو موســم رحلة الطيور الى المناطق الباردة. هبت ريح الشـــمال فجأة فموّجت ماء الهور وتعالت أغنية البردي المتراقص واهتزت الكباشـة بعنف ثم تصـاعدت في فضـاء الهور صـــرخات طيور الهور قاااق، واااق، قوووق وبينها، وجمعت جورية كل شجاعتها فقفزت لتطير من الكباشة وتحلق مع اللقالق والغاق والغرانيق صارخة بأعلى صوتها لتختلط صيحتها مع ضجيج واصطفاق أجنحة طيور الهور ونداءاتها الضاحكة..

القسمة والنصيب وما بينهما

مازال مزهر يتذكر صـــياح أهل قريته المفزوع بعد أن وجد الصـــيادون الفلاح المغدور، أبو بدر مقتولاً طافياً على مياه الهور. كان بدر يكبره بنصف عام، أتى من قرية مجاوره الى صفه في مدرسة القصب الريفية وجلسـا متلاصـقين من الصـف الأول حتى نهاية السـادس. وكان بدر يكبر بسـرعة حتى قاربت قامته مسـتوى باب صـريفة الصـف وهو في الصـف الأخير. ولم يكن جسـده وحده هو ما ينمو بل عقله كذلك فكان من يسـمعه يظنه في العشـرين وهو لم يتخط بعد عامه الثاني عشـر.. عندما سمع أساتذته كيف سحرته أساطير الماء التي سمعها أول مرة من معلم التأريخ، ثم حفظ ملحمة جلجامش، وأساطير الخلق السومرية، واسـتولت على يقظته ومنامه، عدّوا ذلك دلائل نبوغ، فنصـحوه بالانتقال بأقرب وقت الى العاصـــمة. ورث بدر موهبة القص من أمه خصّـــافة، التي كانت أهم مصادره المعرفية في طفولته ولم تكن تقمع خياله الجامح واسئلته التي تسميها أسئلة شياطين وتحاول منحه أكثر ما تستطيع من وقت. ســـألها مرة بعد أن تجول الموت اســـابيعاً في الهور وعاث بقراه فساداً وأقام النوائح وألبس النساء السواد:

– هل يوجد بلد لا يصله الموت؟

– نعم، ولكنه بعيد جداً.

فوجئ بردها فسأل فرحا:

– وإذا سبحنا بكل قوتنا هل نصله؟

– كلا، هو بعيد بحيث أنك ستبلغ التسعين من العمر وأنت تسبح ثم تركض، ثم تشيخ وتموت قبل أن تصله.

– وإذا أخذنا الماطور؟

ياولد.. هو بلد بعيييييد.. سيتوقف الماطور وقد تأكلنا الضباع والخنازير ولا تبق شيئاً إلا عظامنا.

قال يائساً:

– يعني هذا البلد خال، لا أحد يسكنه ما الفائدة؟

– كيف خال؟ يسكنه الله فهو الوحيد القادر على وصوله وهو الذي لا يموت!

– يعني الله غير موجود هنا بل هناك؟

– الله هنا وهناك فهو لا يعص عليه أمر، بلحظة يكون هناك وهنا.

– إذا الله يحبنا لماذا لا يأخذنا معه الى هناك؟

– يأخذنا! هو في النهاية يأخذنا.

– بس يأخذنا إلى الجزيرة البعيدة ويدفننا!

– اي، بس من الجزيرة.. يأخذنا الى هناك.

– وما نموت في الطريق؟

غيّر بدر اسم أمه من خصّافة الى إنانا، وحثّ مزهر بعد أن سرت عدوى الأساطير اليه، على تغيير اسم زهرة الى سميرا ميس. بدر مجنون، بقي يبحث في القواميس والإشتقاقات اللغوية ليبرهن على أن اسم عمته مصّيعة سومري محوّر.. واسم إحدى خالاته حوّاطه، بابلي أو أكدي، حرّف الخاء الأصلي فيه بالهاء والتاء بالطاء. كان يجادل صاخباً:

– جد لي في أي بلد عربي، امرأة واحدة باسم مصّيعه أو حوّاطه أو چيتايه أما جدتك، بتّية، يا مزهر فاعذرني، هي رغم اسمها حتى لا تشبه السومريين، بيضاء بشعر أحمر، وعيون خضر مخيفة. هذه جدتك مصنوعة بمعسكر إنكليزي، سامحني. مستر بريطاني أغوى امها.

كلما تذكر مزهر ذلك اليوم، يوم فراق بدر، يشعر بتفاهة حياته ولا جدواها.. آنذاك كانت صفحة نهر المزيويل هادئة، سعف النخل يرقص على تغريد أنغام الطيور، وهما معاً في القارب الصغير في الطريق المائي للسوق، وصلا الخورة، دوامة الماء التي تتوسط المسافة بين بستان أبو زهرة ومدرسة القصب حيث مكنة الماء الصدئة التي تنشج طيلة النهار بصخب ضاخة الماء للحقل. في تلك الدقائق من ذلك

الضـــحى المرعب كان الاتفاق أن تكون زهرة في بســتانهم المطل على النهر.. على بـدر أن يـأخـذ المجـداف منـه مـا أن يصـــــلا الخورة، وسيتشـاغل بالتجديف والغناء والنظر للضـفة الأخرى كمن لا يدري أنها لحظات إيماءات العاشـقين. كما في كل مرة سـيرفع مزهر كفه محيياً، منتظراً أن ترفع زهرة كفها المضـــمخة برائحة اليقطين والخيار والبطيخ ثم تنتزع قبلة من أعماق قلبها وتضعها على شفتيها وتطيّرها في الهواء.

قدمت زهرة متشـاغلة بإطعام الدجاجات، رفعت رأسـها وصـوبت نظرة للقارب ثم فجأة رآها مزهر تشير له بفزع وهبت صـارخة مذعورة راكضـة الى الوراء وكأن حريقاً قد شـــب، فحريق القصـــب الذي لا يبق على شـيء، وحده ما يفسـر هلعها. إلتفت لنقل حيرته لبدر فرأى نفسـه وحيداً فصاح:

– بدر!

لا جواب. مشدوهاً أدار رأسه في كل الإتجاهات:

– بدر لا تمزح معي أين أنت؟

بقي في عرض النهر يقاوم التيار بتدوير القارب، بحث بعينيه عن دشداشته:

"لابد أنه يريد تجريب إحدى حيله الكثيرة عليّ، غافلني ليخرج لي من الجانب الثاني"!

دقيقة وأخرى وثالثة ورابعة لا شـــئ غير دوران الماء المخيف. لا شـــئ في القارب ولا حوله، ولا في النهر أو على ضـفتيه! لم يصـدق عينيه، وعلى امتداد السلَف تجمع أهل القرية على صوت صراخ مزهر وعويل زهرة. هرعوا بالقوارب وسابحين وعيونهم تمسح صفحة الماء بحثاً عن بدر اليتيم، ثم تقلص طموحهم من العثور عليه حياً الى العثور على جثته! الإبن المســـكين يلحق أباه! تم كل ذلك خلال دقائق، لحظات مباغتة، مجنونة، غامضة، رهيبة حولت الشاب الضاج بالحياة الى جثة ضـــائعة مبحوث عنها! إختفى بدر اليتيم بلمحة من على وجه الأرض كلها ولم يره أحد منذ تلك الســـاعة. كيف ابتلعه الماء وهو المولود فيه مثل كلب الماء؟ ما الذي فعله للنهر حتى يعاقبه هذا العقاب الرهيب؟ قالوا إنها الخورة، دوامة الماء التي طالما فشـــل الســـباحون المهرة في اجتيازها، ولكن هل هي المرة الأولى التي يرى فيها الدوامة؟ الم يســـبح مراراً في منتصـفها؟ هل فقد توازنه وهو ينظر الى دوران الماء؟ الا يلفظ الماء غريقه الى السطح؟

ليس للماء صـاحب، لا أحد يعرف أسـرار الماء أبداً، ولا أحد يحزر ما يريد النهر. زهرة كانت شاهداً لكي تقطع حبل الأقاويل:

– كنت في البســـتان لإطعام الدجاجات ورأيت بدر في القارب، وكان معه مزهر، فجأة سقط المجداف من يد بدر وسقط هو في الماء بعدها! لم أصدق ما رأت عيناي.

منذ تلك اللحظة بقي مزهر يتجنب النزول للماء بمفرده، وفي المرات القليلة التي يجبر فيها على الســـباحة وحيداً كان بدر الغريق يزحف ويتعلق بساقيه بهدوء ليسحبه لأعماق النهر فيهرب من الماء مذعوراً.. في النوم قال له بدر:

– لماذا تهرب مني؟ أريد أن أقص عليك الواقعة وأنت تهرب، الا تريد معرفة ما حدث؟

– عُد الى الأرض لقول الحقيقة، كيف يمكن للماء أن يخدعك وأنت العوّام؟ أنت من كان يعلمنا المرور من تحت كومة البردي العائم؟

رد عليه مثل من يصلي:

"هو أنت أيها النهر، الذي خلقت كل شـــيء، عندما حفر الآلهة العظام مجراك، وضعوا على ضفافك الرخاء، وفي أعماقك أقام الملك إيا مقره! منحك الهياج والتألق والرهبة، وجعل منك طوفاناً لا يقهر".

قسمة الولد المسكين ان يلحق اباه! هكذا قال أهل الهور يائسين!

في تلك الأيام، كان ما يشغل القرية أن زهرة تفضل الموت حارقة نفسها على القبول بكويظم ابن خالها زوجاً. صـــرف ابوها الخاطب مرات مرداً:

– الهور يعج بالعشرات غير زهرة، الزواج قسمة ونصيب عمي!

وكانت زهرة تكرر إصـرارها على تجرع السـم لو اجبروها على ان تزف لعاتي!

–ما الذي تريده زهرة؟ ابن الملك؟

– لا، حتى ابن الملك لا تريده، البنت عاشـــقة من صـــغرها وعشـــق الصغر كافر..

على زهرة انتظار انتهاء مزهر من دراسته فهو قسمتها المعينة منذ زمن بعيد.. أحب مزهر زهرة وأحبته هي أكثر، وكان يتحايل لرؤيتها بعرض مساعدتها في حش طعام البقرات أو حمل كيس الطحين من القارب.

أمسـك بالمنجل وخطا للبسـتان، تسـلق النخلة التي ينوء صـدرها الثقيل بتمر البرحي وقص عذقاً كبيراً، عـاد ووقف قبالـة بلم ابو زهرة الكبير وصاح:

– عمه ودي زهرة لبستاننا تأخذ التمر!

– الله يوفقك عمه مزهر ويهنيك بشبابك!

ما كان في القرية مكان للقاء، فهي صـــغيرة متناثرة البيوت كثيفة النخل لكن نخلها السامق لا يخفي قامة إنسان. سر النخلة يكمن في الأعالي، فهي لا تخفي أحداً الا إذا اختبأ في قلبها. لا يمكن لجذوع النخل أن تضـيّع قامتيهما ولا فرصـة لانفراد اثنين بعيداً عن العيون إلا في الهور الفســيح الذي لا تدخله النســاء الا كمجاميع أو بصـــحبة أزواجهن أو اخوانهن. بقيا مكتفين بالنظرات والتلميح لبعضـهما ككل عشـاق الريف، لا، ليس دائماً بالتلويح، فحين يسـمح الحظ، او الصـدفة التي لا تحدث الا مرة كل الفي عام، وتكون أم زهرة غائبة لزيارة أختها البعيدة، ويكون أبوها في المدينة لاسـتحصـال شـهادة الجنسـية، وجدتها في مسـتشـفى القضاء، ويكون أخوها في وحدته العسكرية معلقاً في ربيئة قرب السماء، وجاراتها في رحلة عمل جماعية الى الهور لحش البردي، أي عندما تتلاقى كل هذه الظروف بوقت واحد وتحتاج زهرة لمن يســـاعدها في نقل الخراف بالقارب الكبير من مراعيها في الضـــفة المقابلة الى حضائرها ويكون مزهر حينها بالصدفة قريباً من البستان، هل سيتغاضى عن حاجتها للمســـاعدة؟ وبعد أن يكمل آخر خروف قفزته البلهاء من

القارب الى الجرف وتلتقي عيناه بعينيها ويهم بالمغادرة الا يجدر به أن يسألها:

– هل يمكنني مساعدتك بأمر آخر؟

وعندما تصـــمت وتختلج شــفتاها وعيناها باضـــطراب، ويتوهج خداها حمرة، الا يتحتم عليه الاقتراب منها والاستفسار منها:

– زهرة هل تشكين من شئ؟

وعندما تجيب:

– أي مزهر.. أشكو.. هنا..

وتشـــير الى قلبها، ألا يجدر به أن.. يا لعطر الريفيات، كأنما نبتن من الأرض مع شتلات الريحان، وثمار التين، وبذور السِعْد. ضوع المسك والقرنفل يملأ رئتيه وقلب زهرة التي شــكت منه، يدق بعنف ويضــرب بتواتر متصـــاعد حتى خاله ســيخرج من صـــدرها ليقفز الى صـــدره، أصابعها المتشنجة تتشبث بشعره ثم ترفعها بلطف وهي تختض:

– سأختنق.. يا.. روحي!

مرة أخرى توافقت الصـدف عندما التقيا في الهور.. تاه قاربها لسـاعتين عن قوارب صـاحباتها اللواتي أتين لجمع الخرَّيط، في الحقيقة القارب لم يته، لكنه الاتفاق بينهما فالهور لا يمنح مثل هذه الفرصـة أكثر من مرة بالعام، أغراها بلقاء في الهور الذي لا اتساع له:

– النسـاء المرحات سـينشـغلن بالبحث عن البردي المثمر وخرط نهايته في قدر الألمنيوم، عندها ستتسللين بقاربك بهدوء من بين ثرثراتهن وهن يعلكن الأسرار الصغيرة وتضيعين تدريجياً وسط صخبهن بين البردي.

خافتْ. ترددت. لكنها في النهاية وافقت. كان الصـيف وغابات البردي والقصـب ارتفعت آنذاك الى ما يزيد على قامة رجلين. إنتظر طويلاً، لكن لم يخرج من غابة البردي المقابلة أي إنسـان، بدأت الشـكوك تتناهبه، ربما إبتعدت زهرة عن صـاحباتها المنشـغلات بخرط البردي بعد أن تلاشت تدريجياً أصوات غنائهن ومرحهن من أذنيها، ومع حلول السكون ارتبكت فضـيعت الممر وإنحشـر قاربها بين البردي والقصـب. ربما هاجمها خنزير فقطعانها تملأ الهور، ولعل طنطلاً سيسحره جمالها فيفعل بها مثل ما فعل جده الطنطل بجدته! فالطناطل تتربص بالفرادى من رواد الأماكن المقفرة. عند قدومهما، كانت تتابع قاربه بالتفاتات محسـوبة، رأته لحق قافلة القوارب النسـائية من بعيد دون أن يثير إنتباه أحد سـواها وتابعته التفاتاتها يجتاز غابة البردي من جهة الشـرق، لكن

مساحة البردي والقصب مثل جزيرة واسعة وسط مياه الهور الأوسع، لا وجود لشئ ما خلا البردي والقصب والماء والسماء فأين ستعثر عليه؟

– آخ مزهر مت من الخوف!

قالت أنها همت بالرجوع كي تلحق عودة صـــاحباتها، لكنها ســـمعت صــوت غنائه من بعيد فعرفت أنه هناك وقد اسـتبطأها. الهور فسـيح، سـكون المكان ورائحة السـمك اللابط تحت الماء وتعب العضــلات من دفع القارب وقطف الخريط تغري بالإسترخاء:

– تعالي زهرة اقتربي لا تخافي..

– أخاف من روحي ولا أخاف منك.

ثم قبل الغروب وقبل أن يدلها مســـلك العودة الى صـــاحباتها، عندما نفض القش العالق بظهرها واســتله من بين خصــلات شــعرها، تأملها بشغف هامساً:

– مهرة أصيلة، ما أجملك وما أجمل رقبتك!

إبتسمت وضربته على صدره عاضة على شفتها السفلى ثم همست له بغنج:

– بعدك ما شايف شئ!

كانت الايام تمر والجميع يترقب يوم زفافهما، رغم تهديدات شُـكر تاجر الرز وابنه عاتي. شُـــكر يملك فندقين في البصـــرة وبغداد لا يعرف موقعهما أحد ومعمل صـــابون في الكوت، خطب زهرة مرتين، أبوها رفض بحجة أن البيت والبستان لا يقومان إلا بها، كانت حجة، فكل من في القرية يعرف أن قلبها يخفق لمزهر، زهرة حذرته بقلق:

– شكر غاضب من أبي وأنا خائفة، خائفة عليك..

– خافي على نفسك لا تخافي عليّ..

حسنٌ، لنمض أسرع، كي لا نأخذ مساحة أكثر من الورق، ولا من وقت قـارئ اليوم الملول المكتفي بقراءة العنـاوين. ســـنمر على الســـنين مضغوطة فالموضوع شائك وسنلج دروبه بحذر..

مثلاً نقول ان المرء قد يكتشـــف في وقت ما من حياته، أنه لم يكن قد فهم نفسه بما فيه الكفاية، والآن فهمها. ربما لم تكن حواسه، وأحاسيسه، ومشـــاعرة ناضـــجة بما يكفي. أمر طبيعي، هذا هو تدرج العمر، فكم رغبة طفولية قد تحولت الى ضـــدها في الكبر؟ نعم في عمر ما، يجد المرء نفســه بمواجهة متطلبات الحياة فتباغته بخيارات مصــيرية، أما.. أو. أما أن تشـــتغل لكي تعيش أو أن تعيش لكي تجيب على نداءات أعماقك، أما البقاء في القرية وإعادة انتاج ما أنتجه أجدادك أو الرحيل

منها والانطلاق في دروب المدينة الزاخرة بالمفاجئات. أما أن تقتنع بان الهور هو بولة الطناطل مثلما تقول حكايات الجدات أو أن تدرك أن عمر الهور طويل وأن ماكسويل وثيسيجر وكيفن يونغ يعرفون عنه أكثر منك أنت ابن الماء فتجري للحاق بهم. أما أن يبقى لقب ابن الطنطل لصيقاً بك مدى العمر، أو أن تطأ أرضاً لا تعرفك ولم تسمع بالطناطل. حسم أمره بعد أن أكمل سنوات الدراسة الثانوية في المدينة وقرر الرحيل الى العاصـــمة ليختار الاختصـــاص باللغة والآداب. لقد كان الهور مرحلة، مثل الطفولة والصبا، فترة لا تدوم للأبد. إذن لا مفر من هجران القريـة والخلاص من لهجتهـا وعلاقـاتهـا، نمطيتهـا ورخـاوتهـا وميوعـة الوقت فيها. نعم فالريفيون للريف وأهل المدن للمدينة. لكن هجران القرية والريف، سيعني هجراناً آخر.. كلامه لا لبس فيه، هو سيبدأ من جديد، بعد أن ينهي علاقاته بالريفيين. لا حياة لريفي في العاصـــمة! هو ذاته خضــع لابتزاز المدينة واختباراتها القاسـية عندما ضــحك بنوها منه هو الريفي الذي لا يعرف كيف يتعامل حتى مع التلفون، فأية حياة تكون هناك لريفية؟

عندما رأى مزهر التلفون أول مرة، كان في الرابعة عشــرة وهو في زيارة لمكتـب قريـب لـه فخرج الرجـل للحـديـث مع أحـد التجـار من جيرانـه وأوصاه:

– عمو مزهر إذا اتصل بي شخص اسمه ابو منير نادني حالاً أنا في أول محل على اليمين..

رن التلفون فأحس بقلبه يدق بعنف، رفع السماعة فسمع شخصاً يتكلم وبارتباك سأله:

– أنت أبو منير؟

قال الرجل:

– نعم، أنا مستعجل رجاءً ناد عمك..

بدون أن يضيع الوقت أعاد السماعة لمكانها وركض.. عندما وصل قريبه نظر له بسخرية واستغراب:

– يا معيدي أنت أغلقت الخط! كيف سأرد الآن على ابو منير؟

وأعقبها بضحكة مجلجلة قلعت الفتى من مكانه على الكرسي والقت به في أعماق الهور بين غابات البردي والقصب متستراً عن عيون المتجولين التي تخيلها قد رأت فعلته الريفية! كانت تلك أول عرقة خجل أشعرته بها المدينة، ما زال للآن يرتجف عندما يتذكرها المسكين، أراد أن يعرض نفسه مدينياً مرتباً فأعاد السماعة الى مكانها.. كم من المهارات عليه أن يتعلم، هو المعيدي كما نعته قريبه التاجر؟ سوف لن يكرر غلطته، خط التلفون يبقى مفتوحاً عندما لا تعيد السماعة الى

مكانها، بل تضـــعها على الطاولة، على غير مكانها. منذ ذلك الحين وهو يتجنب لقاء ذلك الذي وصـــمه بالمعيدي! ومنذ ذلك الزمان وهو يستثقل الحديث عبر التلفون.

تبقى المدينة صـعبة. صـعبة جداً، وقاسـية، كل شـئ فيها جديد، وغير مألوف ترى كيف يمكنه التمييز بين باب وباب آخر مثلاً؟

طلبوا منه تقريراً بسـلامة رئتيه فقصـد المسـتشـفى في يوم ممطر بارد. ســأل الفرّاش عن مكان طبيب الأشـــعة فأومأ له أن ينتظر أمام الباب المقابل. كان حذاءه كتلة من الطين عندما وقف أمام الباب الحديدي الذي رآه قبل قليل يفتح ويغلق تلقائياً. كان معه اثنان ينتظران ولكنهما بأحذية نظيفة ولماعة. قبل أن يفتح الباب رأى مزهر من غير اللائق أن يدخل لغرفة الأشعة ويلوث أرض غرفة الطبيب بحذاءه فخلعه وتركه الى جانب الباب..

هذه الواقعة لا يخجل منها فهي قد بقيت ســـراً لا يعلمه أحد! الناس هم الذين يشعرونك بالخجل، أما ما تفعله نفسك مع نفسك فهو سر بينكما! مثل أن ترى نفسك عارياً في الحمام. لم يجد نفسه في غرفة الطبيب بل في مجال ضيق عرف أنه بديل عن السّلم يسمونه المصعد واستنتج بعد لحظات أن حذاءه قد بقي في الطابق الأول.. كانت الســـاعة الثامنة صباحاً والمستشفى فارغ تقريباً. أخذت الممرضة المتثائبة بطاقة الاحالة منـه دون أن تنظر اليـه وأومـأت لـه كي يقف في مكـان رســـم عليـه

بالأحمر شكل لقدمين. بعد لحظة طلبت منه ببغدادية ناعسة ألّا يتنفس ففعل. كان يكتم أنفاســـه خوف أن تنتبه لقدميه الحافيتين لكن المعجزة كانت أن أحداً لم ينتبه، فغادر الغرفة راكضـــاً هابطاً الســـلم كي يلحق حذاءه الملوث قبل أن يلقيه الفراش الى حاوية القمامة!

مزهر، رغم أنه لم يكن بغدادياً، الا انه عاش بالعاصمة وأحبها بصدق، بغداد هذه، كم أحبها؟ أحبها رغم غرورها الأول تجاه ريفي مثله ومصداتها التي جربتها ضده حين أتاها قادماً من حقول الرز وبساتين النخيل وغابات القصب والبردي.. رغم تهامس صبایاها وتضاحكهن وهو يلفظ الماء ماياً:

– ميّ مو ماي!

– ماي أقرب للفصيحة. العرب لا تحذف الالف بل تبدل الهمزة ياءً

ورغم سخريه الزملاء عندما أرادوا تعليمه قيادة دراجة هوائية:

– مزهر هذا بايســـكل مو حمارســـكل، لازم تحرّك رجليك، لا تتوقعه يمشي بنفسه.

لابد من تعلم الدراجة فهي صـــنعة مدينية خالصـــة، ثم نطْق الحروف والكلمات كما يلفظها ناس بغداد. إذا عشـــت في المدينة فكن مُتَمَدْنِياً،

تخلّق بأخلاقها والا ســـيأكلونك ويتركون بقاياك للكلاب الضـــالة، فما أكثرها في دروب العاصمة.. قال لنفسه..

ذلك كان في الماضـــي، أول ايامه في المدينة، أما الآن، بعد ثلاث سـنوات في المدرسـة الثانوية فهو مديني بالكامل. لكن في خضـم هذه التحولات الكبرى سـيختفي من حياته بالتدريج عنصـر آخر أكثر أهمية، مرتبط، أو متفرع من هذا الاختيار.. زهرة! نعم، حياته الخاصـــة كلها يتوجب تغييرها ومن ضـمن ذلك زهرة التي سـيكتشـفها ريفية لا تعرف إلا قراءة رسـائل أخيها، وأنها لم تعد تناسـبه! لا، ليس هذا مكانها. لا يمكنها اللحاق به هو الطائر المهووس بالمعلقات والملاحم. تلك كانت معضـلة الحياة الكبرى فهو يحبها.. لا يمكنه انكار ذلك، لكنه الآن في طور صـيرورة جديدة. وهذه هي كلمة تعلمها حديثاً، الصـيرورة! هو في طريقه لأن يصـير مدينياً كاملاً، في كل شـئ. في هذه المرحلة، هو مكون من نصفين، نصف ريفي آيل للاضمحلال متعلق بزهرة ولا يمكنه البقاء بدونها، ونصـف آخر متمدْنٍ، هو رائد المكتبات، والرحلات، وعضـو المنتديات، والمتكلم في الندوات وهذا النصـف الثاني آيل للنمو على حساب الأول. نصفه الآخر هذا لم يكن يرى فيها شريكاً!

لم يكن الأمر سـهلاً، كلا أبداً. كانت معضـلة حياتية! إذا أقنع نصـفه الأحدث نصـفه الأقدم بضـرورة التفريط بزهرة، كيف سـيتغاضـى عن

حتمية وجود آخر سـيقطف تفاحة أنوثتها اليانعة التي كان يترقبها يوماً بعد يوم؟ ثم لو أن نصـفيه تجاوزا أنانيتيهما وتركاها تلاقي نصـيبها، كيف يمكنه مصـارحتها بحقيقة أنه لن يكون شـريك العمر وهي التي عاشـت طفولتها وصـباها في فضـاه؟ كان فكره كله مشـوشـاً، فعطرها مزيج رائحة اليقطين الطري والخيار والتين والقرنفل بقي معشـعشـاً في أنفاسـه، ونظرة عينيها المتسـائلتين البريئتين كنظرة جرو يافع انحفرت موشـومة في أعماقه مثل جرح قديم، كلماتها العذبة وحنانها الطاغي ووجهها الباهر، كيف ينسى؟ هما نبتتا سوية، لكن كل ذلك لم يشفع لها أمام وحش المدينة. أخيراً، بعد أن غاب في المدينة ثلاث سنين ثم عاد، كانت القرية تتهامس بقرب زواجهما لكن بعد اصـراره على الدراسـة في جامعة العاصـمة ورفض فكرة العمل في بلدية الناحية، أمسـى افتراقهما سـراً شـائعاً. الجميع أيقن الآن أن مزهر قد طار من عش القرية الى غير عودة. بعد تردد طويل، تشـجع وقرر قطع آخر الحبال التي تشـده لماضيه فحمّل أخته الرسالة الأخيرة:

– قولي لها.. سوف لن تكون سعيدة معي، الحياة تغيرت.

رغم أن أخته سـاهرة كانت متيقنة بضـياع حلم زهرة إبقاء أخيها في فلكها الا أن الاعلان الصريح عن ذلك هزّها هزاً:

– حرام عليك، زهرة جوهرة.. لن تجد في الأرض كلها بنتاً تحبك مثلها!

قالت دامعة العينين فدفن نظراته في الأرض:

– أعرف ذلك، ولأنها جوهرة فسوف لن تخسر شيئاً بفقداني، سوف يتنافس شراة الجواهر عليها. هي وردة وسيزدحم الخطّاب عليها مثل النحل على وردة. أنت فقط أبلغيها بذلك فمن حقها أن تعرف. الحرام هو أن تبقى متمسكة بأمل مستحيل. أفهميها أنني سوف لن أكون موظفاً تقليدياً يمضي يومه بالانكباب على أوراق يختمها ويزودها برقم وتأريخ، ثم يعود لبيته ليأكل ما طبخته الزوجة ويسمع اعادة سيرتها اليومية وطلباتها. عملي سيكون مع المخطوطات، والمؤتمرات، والوفود، والرحلات. سيفد لبيتي المستشرقون والآثاريون وأساتذة اللغات.. عملي سيختلط بحياتي الخاصة وستجد زهرة نفسها جزيرة معزولة بمحيط متلاطم الأمواج.. لا أريدها أن تُصدم..

لم تجد ساهرة قدرة على التحاجج مع أخيها، لقد تمدن، ومضى بعيداً عن جو القرية.. بكت زهرة والقت برأسها على صدر ساهرة. ومثل غريق تشبثت العاشقة المهجورة بسبّاح الشاطئ وأعشاب الجرف

وتمسكت بأكتاف الموجة، لا سند لها غير التعلق بأهداب ماضي الذكريات كي لا تنجرف مع مجرى الماء:

– قولي له سأتعلم، سأدخل المدرسة من جديد وأنجح، فقط أن يمنحني هذه الفرصة، سأكون خادمته ومحبته، سأحرص عليه أكثر من حرصي على روحي، سأفعل كل ما يريده، أخلع شيلتي وأقص شعري، سأصبغ أظافري مثل بنات المدينة كما يروم.. لا تدعيه يذبحني..

في محاولة أخيرة لحسم الصراع الشرس الذي نشب بين عاطفته وعقله، بين ضوع اليقطين في ثوب زهرة وعطور وفساتين زميلاته في الجامعة، بين حديثهن المائع المزخرف بالمصطلحات الإنكليزية ولهجة زهرة التي ورثتها من سابع جدة.. أراد المحاولة، فتخيّلها بعد أن تخلع ملامحها الريفية، قطعاً هي مما تبحث عنه شركات الإعلان. زهرة أجمل الجميلات، لاتجاريها أكثر بنات الجامعة حسناً، عينان شهلاوان واسعتان في وجه خمري مستدير وشعر منساب بلون الكستناء الناضجة، ستكون أجمل النساء. جسدها اللدن الرهيف سيتلائم مع أي نوع من الفساتين أو البناطيل، لا شك بذلك:

– أقدم لكم خطيبتي زهرة.

كلا سيغير اسمها الى زهى، حسنٌ:

– أقدم لكم خطيبتي زهى.

وبعدها؟

– ما تعمل خطيبتك وما اهتماماتها؟ هل تجذبها أيضاً الملاحم والأساطير واللغات؟ هل تجيد الانكليزية مثلك؟

ستكون أضحوكة ما أن تفتح فمها.. هل هو متأكد؟ ألا يمكن أن يغطي جمالها وبرائتها على ريفيتها؟ اقترح على نفسه اقتراحاً جنونياً، سيتخلص من خطيئة هجرها فقرر منح قلبه فرصة أخيرة.. سيأخذها في سفرة سرية الى بغداد، يلبسها لبس المدينة ويطلقها في النادي الاجتماعي مدعياً انها ابنة خالته.. إذا فشلت في الاختبار ستتحقق بنفسها من استحالة اجتماع حياتيهما معاً، سيلقي عن كتفه هذا العبء وسيمكنه ايجاد عذر مناسب:

– إبنة خالتي فتاة بسيطة آتية من الريف اعذروها!

آه مزهر كف عن هذا الجنون! يا للرجل الوغد الذي لا يفكر إلا بنفسه، وكيف ستكون حالتها عندما تلمح ابتسامات الاستخفاف وتسمع أسئلة الاستنطاق؟ ستنسحق! وغد، وغد أنت أفسدتك المدينة! غير ذلك، ستعرف نساء المدينة الماكرات ألف طريقة لكتمان مشاعرهن ومجاملتها وعندما تغادر ستبدأ مكنة التعليقات بالضخ. ثم افترض أن النساء كن رحيمات بها، افترض أنها تجاوزت بمعجزة، الارتباك الطبيعي لأية ريفية

ولم تتشقلب بكرسيها، أو تتعثر بفستانها أو تسكب فنجان القهوة بحضن جارتها، وافترض أنها تمكنت من نطق بضع جمل بغدادية سليمة، لكن هل هو اختبار يوم في ناد أم اختبار الحياة كلها؟ هل أن النادي والمحيط هو ما يهمك أم البيت، والصباح، والمساء، والإهتمامات اليومية، والمجلات المتخصصة، والمكتبات، والملاحم والضيوف، والنقاشات؟ عن ماذا ستتحدث معها بعد شهر، بعد شهرين، وسنة، وعشرين سنة؟ لا أكثر من تسعة شهور وبعدها يبدأ ضخ الصغار.

كلا، زهرة تناسب مزهر الريفي صائد الطيور بالمحجال والذي لم يكن قد رأى قطاراً بحياته لا هذا الحالم بالطيران لأوربا.. هي نخلة رائعة بكل شئ، بقوامها وبثمارها، نخلة نمت بين الرياحين وطيور البجع والغرانيق، نخلة محملة برائحة الطلع والجمّار، ولكنها في المدينة ومع ابن مدينة وفي مكتبة جامعة المدينة لا أكثر من عمود صامت، حديقة ضاحكة ولكن بتربتها فهل يمكن نقل حديقة لمكان آخر؟ مستحيل، زهرة موال جنوبي حزين لكنها في المدينة ليست أكثر من نواح مضحك، تخيل أن تعزف سيمفونية القدر في هور الحمّار، أو أن تغني حميّد في نيويورك، لا يمكن ردم الهوة المخيفة بين ريفية وبنات بغداد. لكنه كلما تخيل زهرة عروساً تزف لغيره يعرّيها ثم يستأثر بجسدها الباهر لتبدأ هي تدريجياً برمي ما تبقى منه في أعماقها للقمامة، شعر بصداع حاد يفلق

جمجمته ثم برغبة في البكاء. كان يخاطب وحش الاســـتئثار الرابض بأعماقه:

تخلّ عن صـــفاقتك! اطلق ســـراح الحمامة فوراً، مادامت قادرة على الطيران.

نعم لابد أن يحسم الأمر:

– قولي لها يا أختي انه القدر، لابد من أن أحررها من سجني..

كان هذا قراره الحاسم! عليه أن يترك الهور والطنطل واسمه الذي يتبعه أنّى نقل خطاه، سوف لن يواصل حياته بهذه السمعة الطنطلية المخيفة. آخر مرة، دخل القرية مساءً كالمتسلل الذي لا يريد أن يكشفه أحد. عاد كي يتخلص مما يجعله يعود ثانية، في الليل أرعبه حلم رأى فيه زهرة تترنم بمقطع حزين:

تكسر جناحي ليش يا لما ردتني..

آآخ اللعنة، هل عرفت بوجوده؟ هل تعمدت نبش قبر الماضي واسماعه عويل الذكريات المقتولة؟

" لم أكسـر جناحك يا زهرة ابداً، أنت ما زلت سـليمة الجناحين يمكنك التحليق، لم تكن تلك رغبتي صـــدقيني، لكنها المدينة، المدينة هي التي

امتصـــتني كما تمتص دوماً رحيق القرية.. المدينة التي تعيش على ما تزرع القرى.. هذا هو عالمنا.. ما تملكيه لا يمكن صـرفه الا بمصـارف الريف. في المدينة ستضيعين، ستتعثرين بمفرداتك القروية وتسقطين في شراك براءتك. نحن الآن ننتمي لفضاءين مختلفين، فضاء رجل مختص بمرض اسـمه الشـعر وفضـاء امرأة ريفية لا تعرف من الشـعر سـوى اسمه. سوف لن يمتعك حديثي الطويل عن هوميروس وغوته، ستشعرين بالملل بعيداً عن خرفانك ودجاجاتك والبردي والقصب وطيور الهور".

أفاق من نومه متكدراً حاساً بفقدانه قدرة التحكم بتصرفاته.

كان ضـحى آخر يوم له في الريف. يوم ريفي بارد مكشوف لريح شباط الحادة. هذه المرة سـتكون حقاً الأخيرة في الريف! لا عودة! كان ماشـياً بمفرده بمحـاذاة النهر كي يلحق المركب المـائي المغـادر للنـاحيـة. عن عمد، تجاهل مراسيم التوديع التقليدية مردداً بتعال بأنه سيعود ذات يوم. مر ببســـتان ابو زهرة فراودته رغبة عارمة بالركض دون التفات الى ما حوله. هو يريد الخلاص من هذا الأســر المعذّب، الخلاص من كل ما يحب، البســتان، ورائحة اليقطين، ومكنة ضــخ الماء، وكل ماله علاقة بـالقريـة وذكريـاتهـا، لكن الحظ لم يقف معـه فرأى زهرة تندفع من بين النخلات عبر البســتان لتقطع الطريق عليه. أول الأمر خالها صــدفة، اللعنة على هذه الصـــدفة المدمّرة، لكنها رفعت يدها من بعيد تترجاه

التمهل فلم يكن أمامه غير انتظارها! كانت على عجل حتى أنها تلفعت برداء ألقته على كتفيها بإهمال رغم البرد. ارتبك وتوقع كلمات وداع ستخلع قلبه من مكانه. اقتربت منه، مسحت الفضاء حولها بنظرة دائرية وبعد أن تأكدت من خلوّه، فجأة، وقبل أن تنطق أية كلمة، إمتدت كفها لدثارها الذي يلف جذعها وطوحت به في الهواء. بقي نصف جسدها العلوي عار، عار تماماً! صعق مزهر وهو يرى صدرها الخمري الساحر ينكشف تحت ريح شباط المرتجفة برداً، وركض بفزع لالتقاط الدثار محاولاً إلقاءه على كتفيها. ابتعدت عنه بعناد ووجهت له نظرات متوحشة لم يعرفها منها من قبل ثم صاحت باكية:

– طعنتني طعنة الموت! هل يرضي ضميرك أن يجف هذا الصدر؟ لقد كشفت لك عن صدري كي تعرف أنك الوحيد الذي رآه وسوف تبقى الوحيد، هذا هو نيشان عنوستي، سوف لن أتزوج يا مزهر أبداً!

غرزت مسمارها بقلبه ومضت!

بقي الساعات التي استغرقها الطريق يرتجف انفعالاً. بحياتها لم تبرز زهرة أنيابها التي شاهدها للتو. بحياته لم ير عينيها غاضبتين، ولم يدر بباله يوماً أن تجرؤ على كشف جسدها في درب القرية العام! مزيج من السخط على نفسه، واحساس بالذنب، والألم مما حل بها يقزّمه أمام

نفسـه. لم تقل زهرة ما قالته الا لأنها تقصـده، هي سـوف تبقى عانساً بسببه!

كل ذئاب القسـوة والعدوانية والانتقام اسـتيقظت فجأة في أعماقه وراحت أنيابها الشـرهة تنهشـه وتنهشـها معاً. كان يحس برغبة عارمة بتحطيم زهرة. الكنز الذي لا يمكنك الحصـول عليه هشّـمه. زهرة كنز، ولكن ليس بمقدوره حيازته، حبها يتحداه، فهي تريد تحنيطه وصـلبه على نخلة في بسـتان أبيها، تريد شدّ قدميه بحبال أنوثتها وإبقائه هناك كسـيحاً في قرية لم يسمع باسمها أحد. كان يريد جمع الثلج والنار في إناء واحد، لا يريد التضـحية بأي منهما، يريد أن يتحرر منها فلا تعيقه ريفيتها من الانطلاق بدروب المدينة، وبذات الوقت لا يطيق التفكير بأن أحداً آخر سيأخذها في وقت ما منه!

كثير من تصـرفاته كان يعوزها الاحتراس أو قل يقظة الضـمير، والا كيف يسمح لنفسـه أن تطوف صـوره مع بنات الجامعة المدنيات فتنتقل من بيت الى أخر من بيوت قريته القصـية؟ مرة يقف فيها قبالة واحدة تتفرس بوجهه بولَهٍ بائن، ومازحاً مع أخرى محاولاً انتزاع قنينة بيبسـي منها في لقطة بدت فيها فورة البيبسـي من فوهة القنينة التي تمسـك بها الفتاة وملامح وجهها الناعسة كما لو أنهما قد نهضا من الفراش للتو.

ربما سـيرد أن ذلك تم بدون قصـد، لكنه، في كل الأحوال بدا بنظر القرويين متعمداً ذبح زهرة الموجوعة المعتكفة ببيت أبيها. هل كان ذلك حقاً بلا قصـد، أم هو دافع في أعماقه يلح أن يمعن في القسـوة عليها؟ كان يمكنه الإقدام على خطوة انهاء علاقته بها منذ زمن، ألم يكن بوسعه الانتباه الى سيرهما باتجاهين متعاكسين منذ أن تركت هي المدرسة في سن الثانية عشرة؟ لو أعلمها وهي بذلك العمر لمنحها أكثر من سبع سنين تتدرب خلالها على الابتعاد عنه ونسيانه. كلا، هو لم يكن يطيق أن يأخذها منه أحد آخر رغم معرفته أنه لن يكون لها. هذا هو منتهى الأنانية والعجرفة.

أبعد مما فكر به من احتمالات وخسائر ستلحق بزهرة، كانت الإشاعات التي نمت مثل العفن، فالقرية التي لا تجد ما تتسـلى به غير الحكايات المكررة، سوف لن تكف عن السؤال، لماذا لا تتزوج شابة ساحرة يتزاحم الموسـرون وذوو الجاه على خطبتها؟ من الصـعب على أدمغة ناسـها اسـتيعاب أن تطلب فتاة من رجلها المسـتقبلي أكثر من البيت، والمال، والجاه، والسمعة الحسنة، ذهب مزهر ولكن غيره بالعشرات، وكلهم اوفر مالاً وأوسـع نفوذاً وجاهاً منه فما الذي يجبر زهرة على البقاء في كوخ ابيها البائس واستثارة عداوة خطّابها الكثر؟

توقعْ إذن أن تتجمع سحبٌ الشكوك في فضاء القرية:

ربما تكون زهرة..

وسرعان ما تكاثفت الربما تكون زهرة لتمطر قصصاً. توقع البعض أن تنهي زهرة حياتها، ربما ظناً منهم أن الحب الذي صـــرعها ما هو الا تجربة خاسـرة سـلمت نفسـها خلالها لحبيبها. سـاعة الشـيطان تركع الجبابرة. كانت زهرة تحس بما يتهامسون به فتحشرج رداً على مرغّبيها بالزواج:

- لكني لا أريد الزواج!

وكانت مفردة الزواج تختنق ببلعومها ثم تسقط من فمها مضرجة بالدم.

بدأت الشكوك تتناهشه بأن البنت القروية قد توهمت فقدانها عذريتها على يديه. ليس لدى القرويات فكرة واضحة عن العذرية. ربما فرض الزوج السايكولوجي الوهمي نفسه عليها، فتخيلت نفسها غير قادرة على التعاطي مع أي رجل آخر. قرر السفر لغرض وحيد هو مقابلتها. طوال الساعات الخمس التي قطعها الباص كأنما ذاهباً لزيارة المقابر، كان يستعيد تفاصيل حياتهما الماضية، بالذات لقاء الهور، ساعات العزلة، ترى هل ظنت أن كنزها ضاع هناك؟ سقط بين البردي والقصب ولا سبيل للعثور عليه وإعادته لها؟

- زهرة إذا كان ما يمنعك من الزواج هو..

– لا يمنعني من الزواج الا كوني لا أريد الزواج لأني متزوجة!

– زهرة، لا تحقدي عليّ، أنا مستعد لعرضك على الطبيب وسترين أنك عذراء، لم يحدث لك شيء. الفتاة لا تفقد عذريتها نتيجة القبل..

– أعرف، لا تفقد عذريتها نتيجة القبل، لكنها تفقد روحها..

ردت ناظرة اليه بعينين غارقتين بالدموع ثم غادرت دون التفات.

ما الذي قصدته؟ ما معنى أنها متزوجة؟ هل يعني ذلك أنه أغلق باب انوثتها خلفه فلم يعد بمقدور أحد دخوله بعده؟ في كل الأحوال هو الجاني. في تلك اللحظة داخله خبل ففكر بالهجوم عليها وتجريدها من ملابسها وإعلان زواجه الفوري بها! ذلك هو الاجراء الوحيد الذي سيبقيه معها، ماذا يسمونه؟ الأمر الواقع، نعم سيضع نفسه أمام الأمر الواقع، ركض خلفها لكنها لم تعره انتباهاً فعرف أن حلّه قد تأخر، لقد قتلها..

انتهى الضغط، أكملنا استعراض أقل بقليل من ربع قرن من الزمن!

كائنات المدينة

غير بعيد من مكان مزهر في بناية تحمل إسماً غريباً "القسم الداخلي إسكان طلاب الجامعة"، سكن الولد الآخر صاحب العينين الزرقاوين والبشرة المائلة للحمرة، صُهيب.

سأل ببساطة الريفيين:

– لماذا يسمونه القسم الداخلي وهو يقع خارج مبنى الجامعة؟

– وماذا تريدهم أن يسموه إذن القسم الخارجي؟

من غير اليسير أن يحملك أبناء المدينة على محمل الجد، كل ما تقوله يبدو لهم سخيفاً مضحكاً، حتى لو كانت تسمية القسم الداخلي نفسها مضحكة!

كان صُهيب طويلاً وجميل القسمات يرتدي في الصيف بنطلون الشارلستون وقميصاً ملتصقاً بجلده، وبدون الفانيلة كعادته. يراه الرائي في أروقة كلية الآداب على الدوام ماسكاً مجموعة أوراق ومنشغلاً بحديث عن بغداد والشعر والشعراء.. يدرس في ذات الكلية التي التحق بها مزهر لكن كل منهما بقي يتحاشى الآخر.. ويشعر نحوه بشيء من

الريبة والضـغينة. في فصـل الدراسـة السـنوي الأول، وهو مازال منبهراً بأصوات النساء العارية من المخفضات، وعيونهن المحدقة به بثقة اثناء الحديث، وعطورهن الجائلة في ممرات وأفنية بنايات الجامعة مثل طيور الخطاف، وفي طريقه من المكتبة الى بيت الطلبة حيث عجائز الشـجر تلقي بأوراقها الصـفر الى الأرض، إعترض صـهيب خيالها أولاً، التفت فرأى قامة امرأة شـاهقة. وجد نفسـه يحييها بدون أي سبب سوى ارتباكه بعد التقاء عينيه المباشـر بعينيها فلم يحسـن الانسـحاب السـلس. ردت التحية وبقيا يتمشـيان متقاربين لضـيق الرصـيف، انتبهت المرأة الى حرجه ورأسـه المغروس ببلاط الرصـيف ببحلقة من لم يألف رفقة امرأة، فسألت لتخفيف الحصار عليه:

– طالب آداب جديد اليس كذلك؟

أراد ان يجيب لكنها لم تمهله فصفعته بسؤال آخر:

– وليس من بغداد..

ها هي قد صادته! أحست مجسّاتها المرهفة خذلانه وارتجاف كيانه.

– نعم!

كم تدرب على صـيغة تقديم نفسـه؟ لكنه كل مرة، خاصـة مع النسـاء، يجيب بلا أو نعم ويفوته أن يبادر فيحكي شـيئاً، اسـمه، متى بدأ، من

أي مكان هو، أو أي شيء ملفق على عجل عن الجو وأوراق الأشجار وضجيج السيارات. يفشل حتى في تلفيق ابتسامة ضرورية، ثم لماذا ما زال ينظر لنفسه للآن كريفي؟ الم تكفه أربع سنين حياة مدينية؟ لماذا وافقها ولم يرد، كلا أنا من بغداد؟

بادرت المرأة ذات القامة الشاهقة ففاجأته مادة كفها له:

– كاميليا.. أعمل في نادي اللسانيين.

– صهيب.

رد مثل تلميذ يسأله الحلاق عن اسمه.

تردد لحظة ولم يدر ما يفعل ثم قبض على كفها بسرعة وخراقة دلتا على قلة خبرة واضحة. هالته النعومة التي انسلت بين أصابعه، ما أرق كفها! كان يظن كف فتاته الوحيدة التي عرفها أنعم ما يمكن لامرأة أن تحلم به! بقيا سائرين وبينهما أقل من نصف متر ولم يكن مشهدهما معاً منظراً غريباً، بل يمكننا القول ان طوليهما المتقاربين سيثير في الناظر لهما من بعيد ارتياحاً اولياً خالياً من أي تنافر بصري في عناصر اللوحة. حدثته عن طرافة أيامها الأولى في الجامعة قبل سبع سنين، ورغم انها لم تتكلم الا عن اشتباهها بقاعات الدرس وأسماء الزملاء الا انه حسبها تعيرّه بارتباكه وغربته عن مجتمع نساء المدينة.

قبل أن يفترقا تشـجع وقال جملتين مرتبكتين عن ضـياعه في تحديد ما سوف يتجه لدراسته فسارعت إبداء رغبتها بمساعدته:

– انـا موجودة في المكتبـة كـل ســـبت وثلاثـاء حتى الواحدة يمكنني مساعدتك!

ولم يعرف كيفية الرد على هذا الاعلان، هل هي دعوة للقاء؟ وما الذي ســـيحكيه معها؟ هل يقص عليها حكاية طفولته؟ أم حرمانه وفقره؟ قبل ان يرد الرد الذي بقي محبوساً بين شفتيه سمع صوتاً يهتف به: إذهب للقاء كاميليا، لن تخسر شيئاً، ستتعرف أكثر بمن هو خارج مجرتك!

لابد له أولاً من غســـل قميصـــه الوحيد كي يمحو خيوط العرق التي امتدت إلى ياقته وتحت إبطيه، لا حاجة له بعطر فضـــوع ما ترشـــه كاميليا على جسـدها وشـعرها كفيل بالطغيان على أية نتانة. باسـتثناء مظاهر الفقر التي تفضـحها ملابسه وافتقاره للأتكيت، كان جذاباً للنساء الشـــرقيات بقامته الرهيفة وملامحة الأقرب لملامح أوربي. ورغم إنه لا يحب لعب دور المشـــفوق عليه الذي قد يُختبر به، الا أن دافعاً خفياً كان يحثّه برفق ولكن بإلحاح ليقول له لا تتردد! نعم، ســـيذهب! حاول ترتيب موضـوع أسـاس كي يجعله محور حديثه معها، سـيتحدث معها عن رغبته الاختصـاص بالأدب المقارن، نعم هناك سيستعرض معارفه بالأدب الروسي والأنجليزي والفرنسي، سيلقي بحضنها كل الأسماء التي سـمع بمعظمها دون أن يكمل كتاباً واحداً مما كتبت، سـتانسـلافسـكي،

رولان بات، ميشـــيل كوكتو، أخماتوفا، غوســـتاف فلوبير، صـــيموئيل بيكيت. الأسماء كثيرة والسطحيات التي يعرفها عنها ايضاً لا تُعد، مثلاً سـيحكي لها كيف تعلم سـومرسـت موم الصـينية وهو في الثمانين من عمره، وعن حادثة هروب تولستوي من زوجته المتسلطة، سيعوض فقره المادي بغناه المعرفي، ولكن، إذا باغتته كاميليا بســـؤال لئيم عن الذي قرأه من كتب هؤلاء؟ ســيســقط بالقاضــية! هذه امرأة متخرجة منذ أربع ســنين من الجامعة وقبلها بســنين متخرجة من المجتمع، خبيرة علاقات اجتماعية، لا، هذه مجازفة، لماذا لا يتحدث لها عن عالم الفقير؟ هو العالم الوحيد الذي يعرفه أكثر من اي آخر، يحدثها عن مفردات بيئته المحلية، سـيكون موضـوعاً غريباً على إذن هذه الارسـتقراطية؛ فهي لا يمكن أن تكون سـمعتها، لكنها سـتكتشـف أنه لا يتحدث عن المكان بل انه من هناك، وقد تسأله:

ـ صحيح هل لديكم حمامات ومراحيض هناك؟ المعذرة على السؤال..

عرف من أحاديث الزملاء أن كاميليا المرأة مفرطة الأناقة، بقية من بقايا الارســـتقراطية العصـــملية وأنها الطالبة الوحيدة التي تأتي للكلية بسيارتها الخاصة. قرر الحديث بموضوع مختلف تماماً له علاقة مباشرة ببحث ســـبق وأن جذبه هو صـــلة العربية باللغات الرافدينية الســـامية القديمة السريانية والأكدية والبابلية. مضـى اللقاء الأول بسلام لأنه كان مختصراً بعد ان اعتذرت بدعوتها لاجتماع طارئ. تكررت اللقاءات وبدأ

يسمى كل لقاء بلون واحد من فساتين كاميليا، السبت يلقاها بفستان أزرق موشى بخيوط ذهبية، الثلاثاء بآخر ابيض مطرز بورود قرمزية. لم تكرر فستاناً وربما لم تكرر عطراً. هو كان بالزي الطلابي الموحد بنطلون التشارلستون الرصاصي الوحيد، وقميصه الأبيض المائل للصفرة. صفرة الفقر كما كان يسميها. في بلدته لم يكن يشعر بفقره، الكل ترتدي ذات الملابس، قطعة للصيف وثانية للشتاء وثالثة احتياط.

النساء ساحرات. الجميلات وأنصاف الجميلات وحتى من يسمونهن بالقبيحات هن ساحرات بطرقهن وأساليبهن الأنثوية التي لا يعرف الرجال أسرارها. المضحك ان صهيب حين يعود لغرفته يعجز عن استعادة ملامحها، هل هي جميلة ام قبيحة ام بينهما؟ مرات تبدو له جذابة وعندما يغضبها أمر تنتفخ ملامحها فتتضاعف أبعادها حتى لا تعد متناسبة مع اسمها. بقيت كاميليا قبل كل شئ تسحره باسمها ثم بلغتها الاسبانية عندما تترجم له ما كتبته مجلة الأداب الحديثة عن السياب. كانت في كل مناسبة تتحدث عن عاصمة أوربية زارتها. مرة رأت هرة مشردة في باريس فسلمتها للشرطة، وثانية تزحلق قدمها في روما بسبب انحدار الطريق.. أو عندما تستعيد تراث العائلة بادئة بلازمتها المتباهية:

ـ جدّي عندما كان مبعوثاً في النمسا..

آآخ.. عندما كان جد كامليا مبعوثاً في فيينا أين كان جده هو؟ لنبحث قليلاً: كان الجد في بداية شـــبابه اقترن بابنة عمه وهي أرقى مراحل حياته كما يبدو من أحاديث جدته، أما جد كاميليا كان كما تكرر هي، فكان مغرماً بحفلات الباليه والموسيقى الكلاسيكية ومرغوباً لدى نساء المجتمع المخملي في فيينا. وكانت الفيلا التي يملكها في الضـــاحية الدبلوماسية مكاناً لحفلة أسبوعية يرتادها نخبة المجتمع، ربما كان جده آنذاك منهمكاً بهش البعوض المتوحش الذي هاجم بلا رحمة كتفيه وجانبي عموده الفقري، بعوض يعرف من أين تؤكل الكتف! أو ربما صادفت إحدى الحفلات التي تألق بها دي هير جنكيز بعد رقصة فالس ساحرة مع زوجة مدير الناحية، ذات اليوم الشتائي البارد عندما لسع قدم جده الصـــل، وهو فرخ الثعبان، عندما لم يجدوا علاجاً لدمه، الذي كاد يتوقف عن الحركة بفعل السم، غير تنقيعه بملابسه في الساقية أملاً في أن تثير برودة مائها الدم المضـــرب عن الحركة. بقي الجد بعد هذه الواقعة يصارع الموت بعد أن كاد جسمه يتجمد من البرد ولم يكف كل فراشهم المخزون الذي أهالوه عليه لتدفئته، أو ربما صادفت تلك الأيام يوم طبرة المنجل التي حزت بالخطأ ركبته فأقعدته فصـــلاً كاملاً عن الحركة، أو صـــادفت لحظة إنحناء جد كاميليا لتحية مراقصـــته التي شـــاركته رقصـــة الفالس إنحناءة جده المغموس بطين الهور لاســـتلال شوكة ابو الجنيب التي انغرزت بباطن قدمه.. ربما.. أو كان وقتها يتأوه وهو يبول دماً بعد أن فتكت البلهارسيا بمثانته.

المهم أن صـــهيب تاه في دروب فيينا في الخيال وهناك في زاوية هادئة دافئة من فيلا جدها جنكيز، كان ينفرد بكاميليا ويتخيل كيف تنزاح تنورتها تدريجياً فتكشف عن عاج ساقيها ثم.. لا.. لا.. لا ترفع رأسك أكثر، أنت في عالم وكاميليا في آخر..

هل مال اليها؟ لا يعرف، كان معجباً أكثر بلغتها المتدفقة وبشخصيتها الثابتة وبقدر ما بما اختفى تحت ثيابها. كانت بطوله تماماً لكنه يراها امرأة عملاقة! مع ذلك، بقي يشعر بأن ما يفصلهما عن بعضهما مثل ما يفصـــل بين طير حب مدلل وخروف، كل يأكل بطريقة ويمشـــي بطريقة ويتكلم بطريقة ويعيش بمكان يختلف عن الآخر. بعد مرور شهرين على أول لقاء معها تولد لديه احساس كما لو أنها كانت تطيل أمد وجودها معه عمداً. مرة تطلب رأيه بمقال كتب عن "النثر المركز" وأخرى ترجوه مرافقتها للبحث عن مخطوطة في المكتبة الوطنية، وفي كل تلك المرات كانت تتنقل معه بسيارتها. كانت معروفة في الوسط الطلابي وبدأ زملاءه يتهامسون بخبث:

– الله ربك، عندك سائقك الخاص! كاميليا تحبك، ستقود خطاك وتعبر بك الحدود، ستسهل لك ولوج السوربون، هي جسرك إلى أوربا، هناك ستجد وزنك مضاعفاً، ستكون المسيو الدكتور صهيب خبير الأدب المقارن، يا للهول! نعم هي المرأة الند، امرأة الفكرة بالفكرة، امرأة النقاش والمجادلة لا امرأة الطبخ والأحاديث الركيكة والشكاوى.

لكن، أترى كاميليا الارســـتقراطية تحبه حقاً هو الحافي؟ مرتين دعته لشـــرب القهوة في كافتيريا فندق راق، دعته بحجة اطلاعه على ترجمة جديدة لأحد الأناشيد البابلية، لكنها كانت حيلة نسائية صغيرة لم تنطل عليه. أمضت أولى الدقائق بالحديث عن النشيد وخصصت باقي الوقت لكل ما لا علاقة له بالتاريخ والمســـلات والأناشـــيد.. تكرر انفرادهما وتكررت إطالتها النظر له برغبة افتراس وحشية، فاتحة عينيها الى آخر ما يمكنها ومناخرها تتســـع لتعب مزيداً من الهواء، حتى كان يتخيلها ســـتنقض عليه واحد.. إثنان.. ثلاثة.. ولم يكن هو أقل حيلة. لقد تعلم الكثير وزادت ثقته بنفسه خلال شهور من الاختلاط بأصناف مختلفة من الناس. إفتعل مرة تقليب أوراق بيده ثم باغتها بنظرة سريعة متفحصة متسائلة أربكتها وخلخلت مفاصل خطتها فأشاحت بوجهها ونهضت مبتعدة كي لا تفشي شفتاها الراجفتان ما كان يعتمل بأعماقها. لم تمر أخبار انفرادهما على الزملاء الباحثين عما يتسلون به:

– آه لو أمسكت بك هذه الزرافة العصملي بين ساقيها! سوف لن تتركك الا معاقاً! زوجها الأول المســـكين، مات مخنوقاً في ســـريره، لم تقتله، لكنها أنهكته مطالبة بالمزيد فلم يتمكن من مجاراتها، مات من الإنهاك رحمه الله.

كانوا محقين، كل مرة ينفرد معها كانت رائحة هرمون الأنوثة تهرب من خلايا جسد كاميليا لتملأ فضاء قاعة المكتبة، فيحس بالحرج ويدعوها

بلطف كي يغادرا المكان.. ولكن أين الحقيقة؟ هل يصدق الزملاء؟ هل أحبته أم استلطفته أم ببساطة اشتهته؟

عاد الزملاء فنفوا كل ما قيل:

– لا تصدقنا، نحن نمزح، كاميليا تحفة، امرأة كاملة، ألم تر اننا نسميها العصملي؟ ليرة ذهب! نحن نشهّر بها أمامك لأنها لا تلتفت لأي منا! نحن نغار!

أشق ما كابده دعواتها المباغتة له للمطاعم الفارهة:

– هذه الكافتيريا تقدم قهوة برازيلية لا مثيل لها.

لكنها لا تكتف بالقهوة فبعد اقل من نصف ساعة تطلب من النادل قائمة الطعام لتعرض على مزهر اصنافاً لم يسمع بها، ثم يبدأ الاتكيت الذي يصيبه بالارتباك، طبق أول وطبق ثان وأخيراً طبق ثالث. صحون تبقى وأخرى تفرغ وثالثة تركن الى اليسار الى أن يحين وقت صب ما لا يعرفه فيها. أول مرة خنقته الضحكة عندما تحتم عليه شد المريلة كما يفعل الأطفال الصغار. في النهاية يحين أصعب وقت عندما تنادي كاميليا النادل لتدفع ما يعادل مصروفاته لشهر كامل! أول مرة افتعل البحث في جيوبه، على الطريقة التقليدية المجاملاتية لكن كاميليا تجاهلته ولم تعر فعاليته الملفقة أي اهتمام، ولم تعترض عليها بل أنها

تعمدت، كما بدا له، إطالة الحديث مع النادل قبل أن تفتح حقيبتها الصغيرة وتسلمه الورقة الحمراء المخيفة وكأنها تقول:

إبحث وسنرى، إن كنت قادراً على دفع ثمن الحساء!

ترى كيف يرد على دعواتها المتكررة؟ هي تجرده من ملابسه كل مرة فيحس نفسه عرياناً واقفاً أمام من في المطعم، أيهما أصعب على نفسه أن تعرف كاميليا أنه لم يدعها ولا مرة واحدة لفقره أم أن تحسبه بخيلاً؟ كلاهما صعب على ريفي تعود على كرم القرية، لكن أية قرية تنفع مع هذه الوجبات الغالية؟ حتى وليمة غنّاوي صاحب السفن والمراكب لا تتجاوز السمكة الكبيرة المشوية على أقراص المطال المجفف، ورز من نوع العنبر ولحم الضأن، تقدم كلها مجتمعة بشكل الطبق الأول ثم تنتهي العملية بقدحي شاي، ربما يكون هو الطبق الثاني! تخيل كاميليا مدعوة للغداء في بيته القصبي، تجلس مقرفصة على حصير الخوص وهي تحني قامتها الشاهقة لتناول السمك وأهل القرية يحدقون بأظافرها الملونة التي تتعارك مع عظام السمكة! هراء، لابد لها من تقدير وضعه، لابد أنها انتبهت منذ البدء الى ملابسه التي لم تتغير ولا مرة واحدة! لدينا أرض وبستان نخل! هذا كان جوابه عندما سألته عن عمل والده، هل كان جواباً ملتبساً؟ قبيل واحدة من تلك الدعوات قرر أن يعتذر عن قبولها ويصارحها بحراجة موقفه فهو لن يتمكن من الرد على كرمها بمثله. لتعرف كاميليا إذن أنه قال الحق، أرض وبستان، أرض

تمونهم بالرز وبستان يسد حاجتهم من التمر، لا أكثر! ذلك أكثر مدعاة لإحترام النفس من أن يكون بخيلاً بنظرها، لكنه في اللحظات الأخيرة لم يقدر على اخراج الكلمات من بلعومه. صـــعبٌ إشـــهار فقره أمام امرأة! امرأة لا يعرف بالضبط ما الذي تريده منه. عن أي شيء تبحث كاميليا الارســـتقراطية لدى واحد مثله؟ لقد أدخلته مدارها وبقي يدور هناك بلا حول. كانت هي من ينظم له مواعيده، وبرامجه، ومرافقته للحديث مع أساتذته ولم يتمكن من تحديد ما يدفعها لذلك الى أن تيقن من مشاعرها عندما رأى كيف أصـــفر وجهها بعد أن وقعت عيناها على صـــورة فتاة وقد سقطت من محفظته، هو أيضاً ارتبك بلا سبب فحاول الرد متلعثماً:

– هذه.. كانت جارتنا في الطفولة!

– وبس؟

لم يجب وكان صـــــمته بليغاً، كاميليا مجربّة وتعرف معنى أن يحتفظ شـاب بصـورة جارته الشـابة السـاحرة! في اليوم التالي، إزورت عنه ولم تحدثه وفي اليوم الثالث ردت على تحيته بجفاف ورسمية:

– أهلاً سيد صهيب!

أها سيد صهيب، إذن هذه الارستقراطية العصملي تحبه هو الفقير الذي لا يملك أجرة سـهرة واحدة معها! وهو؟ لم يكن يعرف نفسـه، هل أحبها؟ ما الذي جذبه اليها؟ ارسـتقراطيتها التي لم يتوقع يوماً أن يصـل كعبها؟

أناقتها؟ اهتمامها الغريب به هو القادم من مجاهل ربما لم تسمع بها؟ لا يعرف بالضـبط لكنه كان يفتقدهاعندما تغيب.. الا أن المؤكد هو أن ما يشـعر به هو غير ما كان يشـعر به مع حبيبته البكر في فترة مراهقته. ربما كان هذا نوعاً خاصـاً من الحب، حب مديني أرسـتقراطي! لا يمكن أن يشـبه حب ريفيه معدمة حب ارسـتقراطية مدنية. ثم مرت أيام، نام خلالها خياله الجامح مرتين معها، أو مع من تصـورها هي، وكانت خلال هاتين المرتين تغرد بفرنسـية بقيت تتكرر في رأسـه أينما حل فانهارت مقاومته:

– لا عليك كاميليا، سـأمزق صـورتها إن كانت تغيظك، ها هي مزقيها والقها بنفسك في حاوية القمامة!

وكافأته شفاهها بأول قبلة خاطفة من على حافة سلة القمامة التي حوت مزق وجه فتاته في الغرفة التي غادرها الجميع قبل لحظات.. قبَّلها قبلة خائفة بدون رحيق، وفي ذات اللحظة نظر لسـلة القمامة فإصـطدمت عينه اليمنى بعيني الفتاة الممزقتين المذهولتين، كانتا تكبران ثم تختفيان خلف دفق من دمع غزير فسحب شفتيه بذعر من بين شفتي كاميليا. تلك الليلة لم ينم حتى الصـباح، بحث في أوراقه عن صـورة ثانية لفتاته لكنه لم يجدها، فجأة أحس باشـتياق هائل لرؤيتها، ما كان عليه القيام بهذه الحركة الخائنة الوضيعة، كيف تجرأ على تمزيق صورتها، ليشتري بهذه الفعلة الدنيئة ود أخرى؟ لماذا ضـعف لهذا الحد؟ بوغت بعد اسبوع

حين داهم غرفته جمع الزملاء متصايحين مغنين، كانت كاميليا أعلمتهم عن علاقتهما وقرب زواجهما.. فأحس برعب بالغ، فهو لم يكن قد حسم خيار الإرتباط بها. تشجع وأعلن اعتراضه:

– كاميليا، كيف تعلنين ما لم نتفق عليه؟

– وما قصدك من القبلة إذن إن لم تكن مقدمة زواج؟ الا تحبني؟

أها حتى كاميليا ترى في القبلة السريعة قضيباً في هيكل القفص الذهبي، قالت جملتها وركزت النظر بعينيه فأحس بمزيج مشاعر لم يستطع فهمها أو تعريفها، فيها شيء من الرهبة والخوف من تسلق سور الأرستقراطية الذي يفوق قامته طولاً، ربما كانت الحاجة الداخلية لوجود امرأة من أي نوع كان.. فقال:

– ولكن، لايبدو لي الوقت مناسباً.

– أنا أريد الاختلاء بك لكني لا أريد لأحد أن يلوك سمعتي!

كانت هي أرملة تكبره بسبع سنين. تزوجا بدون احتفال عائلي، لا هي المنحدرة من بقايا سلالة باشوات عثمانية مستعربة كانت راغبة بالوقوف تحت الأضواء الكاشفة مع فقير يصغرها سبع سنين ولا هو كان سيجرؤ ويدعو أهله وأقاربه لحفل زواجه بأرملة وهم المتحفزون للرقص بعرسه:

جبنالك برنو ما ملعوب بسرگيها!

لم يمر وقت طويل حتى أفاق. المرأة تلغي حواس الرجل أحياناً! كان سكراناً ربما، أو مريضاً، أو يدفع ثمن أخطاء الحياة، أو ربما سحرته "كاميليا باشا"، حسب تصنيف عمته بوصفها النساء الجنيات اللاتي يضعن رجالاً أقوياء تحت أقدامهن. لم ينتبه الا فيما بعد الى أن روح كاميليا متغضنة، ومزاجها رصاصي اللون على الدوام، وصوتها ملئ بالكدمات. كانت تتكلم كما لو أنها تشتم وتسب أو تخوض معركة ما، وبدا أن مزاح الزملاء عن شهوانيتها لم يكن بلا أساس. كانت تشتهي بضراوة لكن.. لم يكن بها ما يجعلها مشتهاة. هي تشتهي لنفسها، وبدون مقدمات تسحبه من يديه:

– تعال هنا!

ثم تقعي عليه مثل بقرة تأخذ بثأر أو لديها حساب قديم مع ثورها لا غير. كانت تغيب مع نفسها في دهاليز بعيدة فيجد نفسه بعد حين عرقاناً خارجاً من موقعة لم يكن له بها اختيار! لا يعرف هل أنه تسرع؟ تعمد الانتقام من نفسه؟ لم يكتشف ذلك بعد أن أبهرته أضواء المدينة أو ربما كاميليا هي التي تغيرت، ليس سهلاً على ريفي كشف حقيقة الأشياء في المدن: الطلاء، الأغلفة، الوقت الراكض، النفايات، الدخان، الضجيج، الغبار، الزحام، العطر النافذ، المواصلات، مدير القسم، الحاح الأصدقاء، قرض البنك العقاري، تنورة كاميليا التي تنزاح شبرين أعلى الركبة لتكشف عن عاج الساقين دون أن يتأكد أنه عاج الجوارب،

معيدي لون الجوارب هذا وليس لون السـيقان! السـاقان لا أكثر من جذعين تكتسـحهما الدوالي مثل قنوات متشـابكة. مؤثرات بيئية هائلة التشابك شوشت على عمل حواسه، وكانت تحثه على سرعة الحسم، فيرى الأحمرَ أخضرَ ليعبر مطمئناً الى أن الكل سيتوقف ويدعه يمر. عموماً كما عرف من أكثر من زميل، أن نساء المدينة كلهن يصلن في وقت ما الى حالة التطابق فتنعدم الفروق بينهن بعد سـنين من التهدل والتراخي والأمومة والثوم والبصل وحفاظات الأطفال، يصبحن عصبيات غير واثقات من شيء، ينصرفن لمداراة الهلع من قدوم شبح وجود أخرى فيبحثن عن غريمات مفترضات يشبعنهن شتيمة. في كاميليا الأنثى، شئ منفر ما انفك يبعده عنها، مثلما لا يستطيع أي إنسان لا يضمر شـيئاً ضـد الحيوان أن يلاطف أفعى. لعل هذا الشـيء المنفر هو غطرستها وميلها للسيطرة، أو طولها الفارع مع عرض كتفيها وملامحها الإفتراسية عند الاهتياج مما يقربها من وحوش البراري ويبعدها خطوات عن مواصفات الأنثى الناعمة التي شكلتها المرأة في مخيلته عبر سنين. لكن الأهم من كل هذا أنه لم ينتبه الى أن جذر الفتاة التي مزق صورتها، حب المراهقة، ما زال نابتاً في زاوية ما في روحه. مرات كثيرة كان يتخيلها مكان كاميليا! بل هي من كان يأتي عنوة لخياله، مثلاً في الحديقة عندما انتهى من شـتل شـجيرات آس لاحت أمامه بدلاً منها فأطال النظر لها:

ردت كاميليا:

– أقسم بروح جدي جنكيز أن نظرتك هذه ليست لي، بحياتك كلها لم تنظر لي مثل هذه النظرة الهائمة!

يا للمرأة من رادار صادق حسّاس! كيف حدست هذه السعلوة أنه يفكر بغيرها؟ غير هذه المرة ضبطته مرتين متلبساً بإحضار البديل. آخر هاتين المرتين كانت فيما يفترضه علم النفس لحظتهما الخاصة حيث توجّبَ أن يكون فيها معها، لا في مكان آخر ولا مع شخص آخر، لا يعرف ما الذي حدث. فجأة داهمه عطر طلع النخل ومثلت فتاته أمامه بلباس داخلي أسود شف عن بياض جسدها اللدن، اقتربت شفتاها من شفتيه فأطبقت عليهما بنهم، لم ولا يعرف للآن وسوف لن يعرف أبداً، هل نطق بشيء؟ لكنه لم ينتبه لنفسه الا مركولاً أسفل السرير وكاميليا تصيح مفزوعةً:

– ايها الكلب الأجرب، رجعت لأيام الهور!

ثم تهب واقفة. تشبث بقائمة السرير محاولاً النهوض ومسكها من شعرها الا أن ثورتها كانت عارمة فوجهت له صفعة أطارت الشرار من عينيه. لم يسيطر على نفسه، نهض مثل معتوه فقبض على رقبتها بين يديه وعصرها بقوة ولم يتركها الا وقد جحضت عيناها وبينها والإختناق لحظات. هل كبسته كبسةُ شُرطيةِ حاذقة؟ النساء عموماً لديهن حواس

مضـاعفة، ربما اسـتنشـقت هي أيضـاً ضـوع القرية، أو قد يكون صـاح وهو ينتهي من العملية باســـمها فهو قد تعود أن يهرع لمعين ذاكرته عندما يمتد تحته جســـد كاميليا الشـــبيه بأفعى عريضـــة أكتاف وذات مخالب، تعوّد أن يســـتنجد بذاكرته لكي ينتهي من العملية "بنجاح"! ولا يهمد، وكان يفعل ذلك، أي ألّا يهمد، تجنباً لمسباتها وتعليقاتها:

– لا حاجة لي بك. المعيدي متعود على مضـاجعة الحمير.. أنت وين وكاميليا وين..

كانت النيران تشتعل في بقايا صبره فيتمتم:

– محقة، أنا هو الحمار الذي دخل طوعاً لإسطبلك!

بعد واقعة ضبطه متلبساً، بما اعتقدته، الشهيق المشترك مع أخرى، أوان تمدده التابوتي فوق جسد كاميليا المخروطي، صارحها بصوت خفيض حاد التقاطيع:

– أما أن نقطع هذا الحبل المتهرئ الذي مازال يربط عجيزتينا لبعضهما أو سأخنقك ذات ليلة وألقي بك في النهر!

نظرت له نظرة وحشية ثم برطمت:

– يحكي فصيح.. خوفك من المعيدي إذا تمدن!

كان كل شيء في وجهها مرتعشاً، بدت له مثل نمرة حانقة، كيف عاش مع هذه النمرة كل هذه السنين؟ ارتباط رجل بامرأة جزء من قدره، وتشكيل بسيط في لوحة الحظ التي تنسجها السماء له، كاميليا تحبك، أيمكن للعقارب أن تحب؟ كان عليه اكتشاف ذلك قبل سنين..

عاد صهيب وحيداً..

مزهر لم يكن أكثر حظاً منه، لم تعالج جراح روحه المدينة الحجرية وبقي بعد أن غادر الهور لسنوات طويلة، يقلب فكرة مرعبة تتدثر بين تلافيف دماغه: أيهما سيموت أولاً هو أم زهرة؟ موتها قبله سيكون مدمراً، سيكسره، فهو رغم سيرهما بطريقين مختلفين، هو وحده من سار هي بقيت واقفة بمكانها، ورغم تلاشي أية صلة بينهما، بقي مطمئناً للعالم لأنها موجودة به، لماذا؟ لم يعرف يوماً جواباً على هذا السؤال. ربما لأنه متيقن أنها الانسان الوحيد الذي أحبه بعمق، وربما لوثوقه التام الذي لا يقبل الجدل من أنها لا تتردد في التضحية بحياتها من أجله. بقيت زهرة بعد رحيله للعاصمة سنيناً لا تريد الفكاك من ذكراه، رغم لقاء الوداع المرير، تبعث تحيتها عبر أخته التي تزوره بلا انتظام فتلقي جملتها بوجهه مثل بصقة:

زهرة.. تسلم عليك!

وكان يصـــمت، يطرق للأرض، ينقطع عن التنفس، يتمنى أن يســـأل عنها، لكنه حتى لا يجرؤ على رد ســـلامها. زهرة مازالت تحبه، ورد سلامها قد يأتيه بمقترح من ساهرة:

ما رأيك أن تكتب لها رسالة قصيرة أفرحها بها؟

يا رب الكعبة ماذا يكتب لها؟ يتمنى لها الســـعادة وهو من رش هذه الســعادة بمبيد مميت مثل مبيد الحشـرات؟ وهو من حرمها أن تكون أماً وســـجنها في ســـجن حبه الإنفرادي الموحش؟ هو المجرم مع ســـبق الاصـرار. مرات كان يقول لنفسـه: مهما كان، ورغم القسـوة التي قابلتها بهـا، ألا يمكن تخفيف ألمهـا بطريقـة مـا؟ ألا تســـتحق زهرة النخلـة الصـابرة المشـتولة في بسـتان أبيها مع أشـجار التين والعنب والنبق التي زرعها جدها قبل نصــف قرن، هي العطشــانة، ألا تســتحق مني حفنة ماء، لفتة، كلمة؟ أي ضـرر سـيلحق سـمعتي لو أني رأيتها مرة وحدثتها قليلاً؟ لكنه كان يفتقر لشـــجاعة النظر بعينيها بعد كل ما ســـببه لها، فيؤجل تنفيذ الفكرة، ولم يخطر على بالـه أن يأتي يوم تكون فيـه رؤيـة زهرة مستحيلة الى أن نقلت له أخته خبر الفاجعة ذات يوم:

– أتعرف، لم أكن أود اخبـارك، لكني رأيتهـا في المنـام وحلفتني أن أخبرك بوضعها، زهرة اختفت فجأة من القرية!

عشرة أصابع غليظة أطبقت على رقبته فقال مختنقاً:

– اختفت.. ما معنى اختفت؟

– هددهم شكر تاجر تسويق الرز، الذي كان يريدها لابنه عاتي وبعد أقل من أسبوع فوجئ الناس بتواريها عن الأنظار.

– هذه جريمة، ربما اختطفها أو.. أو قد يكون قتلها!

– لا أحد يعرف على وجه الدقة، ولكن يبدو أن أهلها قد احتاطوا، يقول الناس أنهم غرباء، لا نصير لهم، فلم يكن أمامهم حل سوى تهريبها الى أقاربهم في الكويت، ثم أشاع الأهل أنها تزوجت هناك..

في ذلك اليوم أحس مزهر أنه ارتكب خطيئة العمر التي ينتظرها الشيطان على أحر من الجمر كي يجرجره بخطى واثقة الى غياهب جهنم! هو بعد هذا العمر لا يستطيع الانعتاق من أسر الطفولة والصبا، كان كأنما ينتظر حدثاً يجمعهما، لكن ذلك أمسى مستحيلاً. يتذكر ذلك اليوم كما كان يوم أمس. سمع من ساهرة خبر اختفاء زهرة وكان لديه موعد في البنك، وهو في لجة الموج، تتقاذفه الأفكار، وجد نفسه واقفاً في سوق الغزل مذهولاً أمام قفص تقبع داخل قضبانه بجعة. بجعة من بجعات الهور أسروها ووضعوها في هذا القفص استعداداً لبيعها الى من يدفع، نظرت لعينيه نظرة كسيرة. كانت البجعة تشبهه تماماً، ذات

العينين الكسـيرتين والرقبة الطويلة، عرفته فصـفقت بجناحيها بصـوت أثار انتباه المتفرجين المتجمعين للفرجة لا للشراء.

– من أين أتيت بهذه؟

سـأل البائع الذي كان ينقل بصـرة بين أقفاصـه التي تحبس داخل قضبانها طيور حب وببغاوات وأنواع بوم وحمام زاجل.

– نحن تجار، صادوها وباعوها لي، هل تريد شرائها؟

– لكنها بجعة هور، فضـائها السـماء والماء لا تعيش بقفص ولا بين جدران بيت.

لم يهتم البائع لما سمع وعرف أنه لا يريد الشراء فتحول عنه الى آخرين لكن مزهر ناداه ثانية:

– أريد شراء هذه البجعة.

– سأخصم لك الكثير، يبدو أنك من محبي طيور الهور.

دفع ثمنها غالياً، ووسـط اسـتغراب الحاضـرين حملها بين ذراعيه وفك تشـكيل جناحيها، قبّلها بحنان ثم ألقى بها الى أعلى. سـقطت البجعة على الأرض مرتبكة محاولة تجنب الصدمة، نظرت له مستفهمة وكأنها

غير مصـدقة بإطلاق سـراحها من الأسـر ثم ركضـت بضـعة أمتار وانطلقت صـوب النهر صـافقة بجناحيها الكبيرين. تمتم مثل من يرتل نصاً مقدساً:

تقبليهـا منـي يـا زهرة! أطلقـت البجعـة من أجلـك كي تغفري لي، وتساعدينني في النسيان!

ستعود البجعة للهور حتماً، ذلك هو موطنها، هناك ستتعرف ببجع ذكر ويتفقان على العيش سـوية وبناء أعشـاش ضـخمة بين قصـب الهور الكثيف ثم إنجاب الكثير من البجعات الصـغار. لابد له من الهروب. هو لا يمكنه العودة للهور، لكن عليه الطيران مثل البجعة الى أصـقاع مختلفة تماماً تنسـيه النخل، والغرانيق وضـوع القش المحترق تحت (الطاوة) الحديدية السـوداء. فهو بعد أن عاد وحيداً عادت زهرة من جديد تلوح أمامه في كل زاوية! كانت تلاحقه، كانت جدران الغرفة تطبق عليه فيحس الإختناق. بقي أياماً يخشى الليل فهو أوان الكوابيس. جرب أولاً الخلاص بتكتيك القفزة قصيرة المدى، فسعى للحصول على مكان ضمن حلقة دراسية في جنيف عن حماية اللغات المهددة وهناك كان على موعد مع القدر الذي بدأ يتلاعب به.. كان أكثر من نصـف المشـاركين نسـاء. أربع منهن من مجتمعات الكبت والقهر الشـرق اوسطي، أما الباقيات فكنّ فيض بياض وشقرة ونعومة يموج أمام عينيه. كن اوربيات في عمر الاكتشاف والتأسيس بين التاسعة عشرة والثلاثين.

في الاستراحة كانوا يجتمعون في ردهة الفندق الجبلي المعلقة فوق غيمة متمهلة تحجب لوهلة أديم البحيرة جزئياً عن النظر حتى ليظن المرء نفسه قد وطأ الجنة إثر خطأ مطبعي. كل صباح يرى النساء الشرقيات الأربع ذوات السحن المشبعة سهداً وكآبة وحرماناً وكبتاً يتغامزن فيما بينهن ويشرن الى رقاب الحسان البيضاوات وقد تركت شفاه الليلة الماضية آثارها عليها بشكل كدمات حمر غامقة، وعلى السيقان والأذرع رسم العاشقون جنون أكفهم الراعشة وأصابعهم الهمجية فانطبعت على اللحم البض بشكل بصمات زرق غامقة. البشرة البيضاء لا تجيد كتمان أسرار الليل. تذكر زهرة الضاحكة ورقبتها الساحرة:

فلك طرّك مزيهر شسويت ببلعومي!

أنصت لصياح الديك يدعوه لإلتهام رقاقتي خبز السيّاح مع الشاي المهيّل، وفتح رئتيه يستنشق ضوع القش المحترق في الموقد، يحس لسعة النار تسري بأصابعه وهي تلمس رقبة قوري الألمنيوم المضمخ بسخام الحطب، النعجة البلهاء التي تصر على لحس رقبته كل صباح ورقرقة ماء النهر المنساب بدون توقف منذ بدء الخليقة، والنخلة التي ينوء صدرها الثقيل بالتمر. وفجأة انتبه لعاملة الخدمة بملابسها البيضاء وقد انحنت أمامه لتنظيف طاولته، رفعت رأسها ثم حدقت به مبتسمة فطار صوابه:

هذه زهرة!

همس باذنها مرعوباً:

– هاو آر يو، أقصد.. شلونك.. زهرة؟

تراجعت قليلاً للخلف ثم عرضت ابتسامتها واستدارت بسرعة ماضية حاملة صينية الأطباق وردفاها الثقيلان يهتزان على وقع رنين الصحون. قام ولحقها مثل مخبول فالتفتت مذعورة بعد ان أحست به. رأى كيف أثارت خطواته الراكضة الجالسين فوقف بعضهم فزعاً، ومن باب المطبخ الذي دخلته زهرة قبل لحظات، أقبلت واحدة أخرى لتسأله مبتسمة إن كان كل شيء على ما يرام!

– كلا، ليس كل شيء على ما يرام..

– هل يمكنني مساعدتك بشيء؟ هذا مطبخ إذا أردت طلباً يمكنك الضغط من مكانك على الزر ولن يستغرق الأمر سوى لحظات..

– أريد مقابلة زهرة لو سمحت، أقصد احدى العاملات التي دخلت للمطبخ للتو..

– سيدي ليس لدينا عاملة بهذا الاسم ولا أعرف من تقصد لكن المقابلات وقت العمل ممنوعة، مهمتنا تلبية طلبات النزلاء..

– إذن أوصلي لها رسالة مني، سأنتظرها بعد نهاية الدوام، أو ابلغيها برقم غرفتي، لا تأخذك ظنونك بعيداً أرجوك، لكنها جارتنا زمان الطفولة.

لم تفهم النادلة ففتحت باب المطبخ وقالت:

– من تقصد؟ يمكنك قول ذلك لها مباشرة الآن.

داخل فضاء المطبخ جلست ثلاث عاملات وكانت أخرى واقفة ولم تكن زهرة من بينهن! إعتصمت الكلمات ببلعومه وأضربت ووقفت النادلة تنتظر إجابته فقال لها بعد صمت:

– قبل دقيقتين رأيتها.. أين ذهبت؟

قال ذلك محرجاً بعد أن رأى النادلات يحملقن به كما لو كان مجنوناً.

لقد أخفوها عنه وهرّبوها من الباب الثاني، لكن هل كان ذلك بطلب منها؟

اي مرهم ينفع مع الم الذكريات؟ وأي دواء يشفي المريض بالندم؟ كل يوم كان مزهر يتعثر بذكرى من أيامه المبعثرة في صباحات القرية الضبابية مرات متكررة. يسمع القارب البخاري الذي كان ينقله ست مرات في الأسبوع كل صباح من قريته الغافية الى مدرسته في مركز القضاء، يطلق تثائبه الصباحي ويقترب من جرف النهر ليقفز الى جوفه

العابق برائحة اعذاق التمر ثم يسرح ناظريه تجوبان بساتين النخيل على امتداد نهر البتيرة.

كان سائق الباص يحملق به مشدوهاً:

– استاذ لا وقت لدينا!

في المدينة كثيراً ما تذكر مزهر دجاجات جدته بتيّة عندما تنتف ريشهن لتصنع منه وسائداً فيبدين كائنات قبيحة مسكينة متشابهة:

– أنا أساعدهن في تحمل حر الصيف!

كم كان يحزن على دجاجات جدته؟ هو الآن مثل دجاجة منتوفة الريش. هكذا بات يرى نفسه في المرآة.

لا بد من القول انه قبل أن يتخرج من الاعدادية، أنفق ستة أشهر من عمره في معاملة تغيير اسمه. مزهر إسم ريفي لا يليق به، رغم دلالته الجميلة. دفع مبلغاً كان يكفيه لحياة شهر كامل رشوة لموظف سهل عليه الطريق لكي يقفز مرة واحدة من مزهر الى صهيب! هكذا اقترح موظف الجنسية الذي لم يترك له إختياراً..

– نعم أنت أحمر البشرة لا أكثر من هذا الأسم ملائمة لك!

دفن آخر بقاياه الريفية ونضى عنه ماضيه وسمعته كابن لطنطل عندما دخل بوابة جامعة العاصمة التأريخية متوجهاً الى كلية الآداب ليتعرف

على كاميليا. أحياناً يسأل نفسه ما الذي تبقى من مزهر في صهيب بعد كل هذه السنين؟ لا يعرف. مرات كان يرى الإثنين يتصارعان أمامه، أحدهما يكيل اللكمات والركلات للآخر وكان دائماً ينحاز لمزهر القروي ضد صهيب المتمدْين، لمزهر الذي لازال لا يجيد اللكمات ولا ضربات الرأس في العراك فيحاول الذود عن وجهه المدمى بحزام بنطاله وبعضاته. كان ينهض محاولاً حمايته عن مدى قبضة صهيب. بقي مزهر يزوره في خلوته يسأله عن نفسه وإذا مازال يتذكره وابتسامة يائسة تمد نفسها ببطيء على شفتيه، وكان صهيب يسأل مزهر بخجل عن زهرة فيختفي فجأة من أمام عينيه!

لا يبدو ان صراع الإثنين سينتهي. أحياناً ينفصل عن المكان والزمان دون إرادته مثلما حدث في حفل راق دعي له في مزرعة قصر فخم على دجلة. ترك صفوف الكراسي والارائك وانسل من بينها مثل السائر بنومه، ثم جلس متربعاً على الشاطئ أمام جزرة صغيرة نبتت عليها غابة صغيرة من القصب، تماما كما كان يفعل في أيامه الصيفية في الهور.

عندما كان ممثلاً رسمياً في مؤتمر دولي قدم اسمه:

مزهر رهيف! ولم ينتبه الا فيما بعد عندما وجد اسمه على الورقة!

حتى في الحمام وهو عار كان صـــهيبه يســـخر من مزهره وينعته بالمعيدي الذي لم يلبس في طفولته لباساً..

كان يهمس لنفسه مقرّعاً:

ولكن هل ستمضي حياتك عائشاً على مخزون الذكريات؟ حاولْ أن تعيد ترتيب حياتك من جديد. رتبها وفق نسق مديني عاطفي، لا يعقل أن يكون قلبك قد حجز للأبد، لا تبق مسجوناً في أسوار الماضي، أنت ابتعدت عن عمرك ولا يمكنك العودة اليه".

مصـــطلح جديد ابتكره يليق بحياته الراكضـــة نحو لا هدف محدد: الابتعاد عن العمر. المرء لا يكبر بل يبتعد كل يوم عن ماضـــيه، كل يوم ينفصل عما كان عليه وما فعله. هو كان كل يوم يبدأ عمراً جديداً.. يتعهد في أول أيامه أن يكون مختلفاً.. ربما كانت هذه ردة فعل طبيعية على يأس صـــهيب من تحقيق انجاز ما وشـــعوره الدائم ان عمره ينزاح لماضـــيه بسـرعة دون ترك أثر.. مرت أولى سـنيّ عشـرينياته دون أن ينتبه لها، لكنه فزع عندما وقف على حقيقة كونه قد جاوز التاســـعة والعشرين! طرح على نفسه سؤالاً: هل أنت راض عما مر من حياتك؟ كلا، ابداً لم يكن راض عن حياته، الاسكندر المقدوني فتح العالم ومات وهو تحت الثالثة والثلاثين، وبوشكين كتب أجمل القصائد والروايات قبل الثلاثين ومات دون أن يتم عقده الثالث، وكذلك الســـياب، وبايرون،

وموتسارت، أي منهم لم يجتز ثلاثينيات عمره.. فإلى أين يمضي عمره هو؟ ما الذي فعله للآن؟ فجأة بدا له أنه يعرف سبب النكد الذي رافقه:

أنا لم أنجز شـــيئاً لغياب من يلعب دور الملهم في حياتي أو بالأحرى لغياب الملهمة..

لابد له من تغيير طريقته في التعامل مع خطيئته الأولى عندما قرر ألّا يفكر بشريكة أخرى بعد زهرة:

حرمتها الحياة معي فعليّ أن أحرم حياتي من غيرها.

لم يكن هذا القرار صائباً، الرجل دون امرأة مثل عربة دون حصان، كل الرجال، كل هؤلاء الهمتهم نساء، هو يعرف على الأقل ملهمات السياب وبايرون وبوشـكين أما الاسـكندر، فأي الهام يحتاجه العسـكري؟ هل يتطلب القتل والفتك والاخضـاع الهاماً؟ مع ذلك، من يدري، فالمؤكد أن للإسـكندر زوجتان، واحدة هي ابنة دارا الثالث ملك فارس، الذي طارده وأخضعه، لا شك أن أولاهما هي من كانت تدفع به خلف الحدود ضارباً في الجبال، لكن الثانية؟ يا للفظاعة، تقتل ملكاً وتتزوج ابنته، أو امرأته! أي حيوان هو الانسان؟ هؤلاء القَتَلة غالباً ما يدخلون بعروساتهم، بنات أو زوجات القتلى، في ذات يوم القتل! هل يمكن تصـور مشـاعر تلك الأنثى التي تُجبر على منح نفسها لقاتل أبيها أو زوجها؟ وهل يوجد في

الكون من يؤمن أن تلك الأنثى قد قبلت برضـــاها الزواج الفوري بقاتل أبيها أو زوجها أو أخيها؟

إذن لابد من ملهمة!

لا تتفلسف، ملهمة! أنت كغيرك تبحث عن ساعة شيطان تتكرر ببلادة لسنوات فتسميها حياة زوجية، اليس كذلك؟

وضــمن رحلة البحث عن مَن توضــب له ما تبقى من أيامه المبعثرة، بعد كامليا، جاءت سـهاد وبعدها لمى ثم أتت ياسـمين. بصـدفة، التقى ســهاد وكانت تصــغره بعامين لكنها تكبره بجبل من صــفات وخصــال وطبائع لا توجد لديه. رآها في صـــالة قســم التوثيق منهمكة بإيضـــاح ســـؤالها لأحد المرشـــدين، ومنذ اللحظة الأولى أدهشـــه بريق خاص يتراقص في عينيها. عيون هذه المرأة غريبة، كانت تســـأل لكن عينيها تضـــجان ببريق من يعالج جريحاً. صـــرف المرشـــد وبالغ في تلبية احتياجاتها بنفسه لسبب لم يفهمه. دامت علاقتهما أكثر بقليل من سنة، متأرجحة، ينقصــها الوضــوح، خاصــة من جانبه هو، لم يتمكن خلالها من تحديد إجابته على سؤال أساس: ما الذي يريده بالضبط منها؟ هل يريدها زوجة؟ لا.. الزواج يحتاج لقرار إســـتقرار وهو ليس أهلاً لذلك..

عموماً، في النهاية أفلح في إقناعها أنه لا يناســـبها فتركته ولم يرها ثانية..

أما لمى فلا تحتاج توقفنا، لأنها قصـــة من طرف واحد بقيت ياســمين التي التقاها عند اشتراكه بمؤتمر تربوي وتكررت اجتماعاتها العلمية وبدأ يحس مع تتابعها كما لو أن وجودها يعني أكثر من زميلة عابرة. مرة أخرى هل أحبها؟ لا يعرف بالضبط، لكن ياسمين هي الكائن الأول بعد زهرة الذي يشعره أن غيابه ووجوده يهمها! عندما قدمت ياسمين نفسها رفع حاجبيه: هذه ثالث نوع من الورود اتعرف عليها! هي بين زهرة وكاميليا، فهل ســيكون مصــير علاقته بها أفضــل من الســابقتين؟ في النهاية لابد من امرأة ترتب فوضـــاه الاجتماعية التي ورثها من عزلته البيتية، فوجد نفســه زوجاً لامرأة التقاها صــدفة. عاشــا ســنتهما الأولى والثانية الى أن اصـــطدم بحقيقة أن للحياة مطالب وشـــروط لا يمكنه تلبيتها ولا تجاهلها. كان يروم الاحتفاظ بياسمين، مع رغبته غير القابلة للنقاش في بيت بلا أطفال، واتفق الحظ معه، كما اعتقد أول الأمر، فلم تحمل ياسمين خلال ثلاث سنين من حياتهما، وتصورها تشاركه قناعته أن ليس كل إثنين ملزمين بأن يكونا ثلاثة وأكثر. بصراحته المعهودة مع نفســـه أقر انه يدخل غرفة نومه بلا رغبة! ياســـمين كائن لطيف في صالة الجلوس، وعند استقبال الضيوف، وفي المطعم، وعند التنزه على شاطئ النهر، لكنها في مكانهما المشترك الخاص كائن لا يطاق!

خالها غير مهتمة للأمر وتوهم قدرته على إقناعها برأيه فهي باحثة علم لا تكاد تجد الوقت للقاء صـــديقاتها، لكنها، كما كل امرأة على ما يبدو تريد أن تصبح أماً. ليست هي فقط، المجتمع كله يقف معها ويريدها أن تصير أمّاً. المعضلة أنه لا يحس بقدرته على رفد هذه الحياة بإنسان قد لا يكون راغباً بعيشها. أول الأمر حاول التفلسف:

– أية خطيئة تلك أن ترتكب مخالفة غير قابلة للتصـحيح أو التعويض؟ ماذا لو واجهك ابنك أو ابنتك بمسؤوليتك عن وضـعه في محنة لم يكن له رأي باختيارها؟ فيقول لك أنني لو خيرت ما أتيت الى دنياكم هذه؟ ماذا لو أتى الطفل مشـوهاً وبقي حياته كلها على كرســي معتمداً عليك بدفعه؟ وماذا لو دهستك سيارة وطفلك لم يتخط عامه الأول فبقي يتيماً؟ اية سلطة لي ولك يا ياسمين على الأقدار؟

– صـهيب أنت حسّاس أكثر من العادة، لا يوجد إنسان واحد ولد كارهاً للحياة، الحياة هي التي تجعله محباً أو كارهاً لها..

– لكن هل تســتطيعين منحي ضــماناً أنه لن يولد مشــوهاً؟ أو ناقص عقل؟ أو وارثاً مني قدرة تدمير الغير بلا إحساس بذنب مثلاً؟

نَظَرَتْ بوجهه هلعة، وانتبه متأخراً الى انه يدين نفســـه امامها ببلاهة. ترى كيف ســتفهم هذه المخلوقة عاثرة الحظ اعترافه بقدرته التدميرية؟ لم تجب لكنه قرأ الحيرة والاعتراض على ما قال بعينيها، ثم ســاد الوجوم جو البيت، وجوم بـارد طويـل. مرات قليلـة فكر أن ينصـــاع لرغبتها ويجازف بصـنع طفل لا رغبة له بوجوده، من أجلها لا غير، وبالضـبط

عندما كان يصـــل اللحظة الفاصـــلة بين احتمال أن يكون الطفل أو لا يكون، كان يرى نفسـه هامداً لا رغبة له بالمواصـلة بعد أن يواجهه وجه زهرة وقد وضعت كفها على فمها مندهشة!

هل كان هذا هو بالضـبط ما يمنعه من أن يكون أباً؟ زهرة التي حرمها من أن تكون أماً؟ الكلبان اللذان رآهما في بداية حياته؟ الثور الذي أبكى نساء القرية؟ كلما تأمل في نتائج ساعة الشيطان وجد نفسه هامداً أمام جسـد امرأة تنتظر منه أن يكون شـريكها، لا رغبة له بشـيء، ثم انتهت اللعبة، فحتى ذلك المهرب التسـاومي لم يكن متيسـراً، فقد خسـر كل شـــيء بعد أن بين التحليل المختبري أن جســـده متوافق تماماً مع رغباته. هو غير قادر على إنتاج بداية لحياة مخلوق آخر! اللعنة، أي خبر هذا؟

عرف بذلك صـدفة عندما أجرى تحليلاً شـاملاً بسـبب تقلصـات عنيفة أســـفل بطنه كانت تداهمه بين وقت وآخر. قال التقرير أن مصـــنع الأطفال لديه مصـــاب بعطب دائم.. عطب دائم؟ من الصـعب الحديث عن المشـــاعر التي اجتاحته تلك اللحظة وهو يســتلم تأكيد "عدم القدرة على الإنجاب" من محلل المختبر. فجأة أحس كما لو أنه قليل عقل، أو يافع لن يكتمل نموه أبداً. ربما ضـــاعف عنوان التقرير الدال على عدم القدرة وعبارة "مع أسـفنا الشـديد"، التي القاها المحلل بأذنه كما لو كانت جملة تعزية، من شـــعوره بفقدان شـــيء جوهري موجود لدى غيره من الناس والحيوانات لكن لا حول له على امتلاكه. للآن يجد صـعوبة في

فهم نفسه التي كانت تزيّن لياسمين مزايا الحياة الحرة من مسؤولية اعالة الأطفال ولكنها وقفت أمام محلل المختبر تتقبل تعازيه برضـــوخ مَن تعرض لكارثة لا مرد لها. ما الذي حدث له؟ ربما كان يرى ما عزم عليه مع ياسـمين على أنه اختياره الشـخصـي، لكن عندما عرف أنه لم يكن اختياراً، بل أن الطبيعة بكل جبروتها قد منعتنه من "القدرة على إنجاب طفل"، اتضحت له ضآلة قدراته ودونيته عن باقي أبناء جنسه!

لم يتردد، صـارح ياسـمين بالحقيقة مؤكداً جهله بالأمر من قبل، فوقفت أمامه مذهولة متبلدة الحواس كما لو أنها فقدت صـــلتها بالعالم الذي حولها. ولا كأنها تلك الباحثة الرصينة التي كانت تطارد الحقائق العلمية المختفية عبر سهرات قراءة وبحث تمتد حتى ساعات الصباح الأولى. تردت حالتها وانقطعت عن بحوثها؛ فأدرك أن مســؤوليته التأريخية قد وُضـــعت في اختبار، وأنه يحوُل، بوجوده معها في عالم بلا أولاد، بين امرأة وواحد من أهم عناصـــر وجودها، الأمومة، كما قال له المرشـــد الإجتماعي:

– الرجل، فسـيولوجياً لا يجد في جسـده ما ينبهه لذلك، أما المرأة فكل تركيبها وأعضائها تقف بانتظار القادم، كل شيء فيها يترقب طفلاً!

هكذا قال الطبيب النفسي أيضاً، رغم أنه أجابه معترضاً:

– آلاف النســاء المبدعات المؤثرات في مصـــير العالم لم يتزوجن ولا أطفال لهن! لديك سيمون دي بوفوار، مثلاً..

لكن وجه زهرة الباكي في آخر لقاء جمعهما ارتسم على الجدار أمامه فوضع يديه على عينيه تلقائياً. كان عليه أن يحسم الأمر بعد أن تأكد له سخف ما فعله، فهو يرفض الاشتراك بمهمة صنع طفل، اتضح بأنه غير قادر على صنعه، قد لا يكون سعيداً بحياته لكنه يحطم سعادة إنسان آخر بالإصرار على موقفه هذا. وقف في باب غرفة النوم ساداً منفذ الضوء وساعدته عتمة الفضاء على دحرجة الكلمات بسرعة من بلعومه المتخشب:

– هذه هي أوراق الطلاق كاملة مع الأسباب كي لا يصيب سمعتك أذى..

سارع بمغادرة الغرفة فلحقته ياسمين وأمسكت بكتفه بذعر، نظرت اليه مرة أخرى مبهوتة من وصول الأمر الى ما وصل اليه ثم شبكت كفيها على رأسها وانخرطت ببكاء مرير وكانت تلك أخر ايامهما المشتركة.

لم يكن سعيداً رغم أن ياسمين امرأة يصعب على من يعاشرها ألَا يكون سعيداً. لم يكن الخلل بها، ولا بجنوحه للتنصل من مسؤولية الأبوة.. هو يعرف ذلك فحتى مع ياسمين.. لم يكن مع ياسمين! بعد قرابة الثلاثة أشهر على تلك الواقعة أخرجت له الحياة لسانها ساخرة على طريقتها المعتادة، الطريقة العبثية التي لا يفهمها الانسان رغم تأريخه الطويل الممتد لملايين السنين مع حياته!

وصله استدعاء من المستشفى:

– حضـرتك صـهيب رهيّف نحن آسـفون فالتقرير الطبي الذي اسـتلمته كان لاسم آخر مشابه!

كان من المتوقع أن يثير به هذا التصــريح الخطير مشــاعر الزهو لأنه اسـترجع حقاً سـيعيده مصـطفاً مع الأكثرية "القادرة على الإنجاب"، لكن كلمات الرجل بقيت تدور قرب رأســـه كما لو كانت لا تعنيه فقال بحيادية:

– ما الذي يعنيه هذا؟

– يعني، مبروك، أن حضرتك قادر على الإنجاب!

أولاد الضـــباع، هكذا ببســـاطة، أعادوه قادراً! أول ما فكر به هو ذلك الضحية الذي ربما بدأ حياة جديدة على أساس تصريح غير صحيح:

– الحمد لله بهيجة هذا هو تقرير المختبر!

– كم أنا فرحة به وبك، غداً سأزف الخبر لأهلي!

وربما يستدعونه هذا اليوم ليصدموه بالتكذيب الصاعق:

– حضـرتك صـهيب الرهيفي نحن آسـفون فالتقرير الطبي الذي اسـتلمته كان لاسم آخر مشابه!

– ما الذي يعنيه هذا؟

– يعني، آسفون، أن حضرتك غير قادر على الإنجاب!

كان يمكنه بعدها الشك بأن تأخر حمل ياسمين كان بسببها هي لتكتمل اللوحة الساخرة التي رسمتها الحياة له، فيتصورها قد علمت بزيف التقرير الطبي الذي سبب افتراقهما فتعود بعد أيام نادمة باحثة عنه، لكن ياسمين قصة ختمت بورقة اسمها ورقة الطلاق، وكان ذلك من حسن حظها فصهيب رجل لا يصلح للعيش مع امرأة. المرأة تسكن جموح الرجل وتجبره على الكف عن الطيران، وهو لا مناص له من الطيران.

لا حل غير القفز بعيداً والى أعلى ما يستطيع، إذا كان الناس يتركون أخطائهم ورائهم فانه هنا يتعثر بها كل يوم، ولا سبيل أمامه غير القفز لابد له من الهروب! هذه المرة فكر بقفزة أعلى وأوسع.. سيتقدم للدراسة، فيغيب عن هذه البلاد اربع سنين على الأقل.. بسرعة أكمل إجراءات التقديم لدراسة عليا في الأدب المقارن في ايرلندا، نعم ايرلندا حيث المطر الذي سيخرس هطوله زقزقة طيور الهور في رأسه، ويطمر صمت غابات القصب الأبدي. سيطير، هناك بين ذرى الجبال سوف لن تر عيناه انديا ح المستنقعات، سينسى كل شيء سيمتطي الحاضر ويقوده ماسكاً به من قرنيه قبل ان ينزلق من بين يديه الى هوة الماضي السحيقة. فجأة استيقظ مزهر على صياح ديكهم الأعلط يدعوه لإلتهام رقاقتي خبز السياح مع الشاي المهيّل وكانت الشبابيط قد أفاقت لتوها

من نوم طويل فراحت تمارس رياضـتها الصـباحية لابطة فوق أديم مياه النهر الدافئة. جلس على حصـير خوص النخل يسـتنشـق ضـوع القش المحترق في الموقد الصـباحي ولسـعة النار اللذيذة تسري لأصـابعه بعد ان لامس رقبة قوري الألمنيوم العتيق الذي خسـفته وسـخّمته السـنون. هذا القوري بقايا جهاز عرســـي، كانت جدته تقول، عطر المحَلَب والقرنفل يتصـــاعد من ثوبها الهاشـــمي القديم الذي غطى رأســـه أثناء قيامها لقطف بضـع تينات من البستان وقبل قدوم النعجة البلهاء الحنون سومه المصرة على لحس رقبته كل صباح بعد أن تشرب من ماء النهر المنساب بدون توقف منذ بدء الخليقة، وصله صوت ام زهرة تعيد ندائها اليومي:

مزهر، راح وقت المدرسة خالة، زهرة متانيتك بالمشحوف!

– زهرة، لا تحقدي عليّ، أنا مستعد لأخذك إلى الطبيب وسترين أنك عذراء، لم يحدث لك شيء. الفتاة لا تفقد عذريتها نتيجة القُبَل..

– أعرف، لا تفقد عذريتها بسبب القُبَل، لكنها تفقد روحها..

كان يطل من خلال زجاج نافذة الطائرة على الفراغ السحيق تحته، لكن الهور داهمه وهو في الأعالي. سيُجن، لابد من الهروب الى سماء لا تفرش نفسها على غابات قصب وبردي وماء هادئ، لبلاد ثلج، وجبال،

ووعول ذات قرون. بلاد أخرى جديدة.. يريد أرضاً مجعدة يختبئ بين طياتها، لا بيئة تصلح لدفن الأسرار أفضل من الجبل.. الخلاص في النسيان، في مسح الماضي من تلافيف الذاكرة، لكن هل بمقدور أحد الإفلات من هذا الثقب الأسود؟ لا مفر، الماضي هو السكون، والحاضر هو الحركة والكل ماض للسكون. الماضي مقبرة الحاضر والجميع ذاهب لها محمولاً على عربة المستقبل، بلا إرادة.

أجرى امتحانات القبول بيسر وكان حظه سعيداً هذه المرة فأستاذه المشرف كان مستعرباً لطيفاً، يحمل الكثير من سمات المستعربين التقليدية بتحمسهم لتعلم تفاصيل حياة الشرق وجديتهم بتعلم اللغة والعادات، وهي المزايا والصفات التي جلبت لهم سابقاً سمعة مشينة، فهم في نظر أهل البلاد دائماً مشبوهون جواسيس، تعلموا اللغة كي يسربوا أسرار هذه البلاد خارج الحدود. منحت الدولة مزهر او صهيب شقة كبيرة يشترك بها مع أحد مواطنيه الموجود بصفة ملحق تجاري كما عرف. كانت الشقة مريحة وواسعة بأربع غرف، غرفتان في كل جهة، يفرق بين الجهتين مجاز بعرض مترين ونصف ينتهي الى المطبخ المشترك. ومن حسن حظ صهيب ان الحمامات لم تكن مشتركة بل مستقلة يتم بلوغها من داخل غرف النوم.

– سيد تقي.

قدّم الرجل الثلاثيني نفسه، وعلى الفور أدرك صهيب من طريقة الرجل في الحوار واسلوبه في الوصول لما يريد من المعلومات ومبالغته في مراسيم الضيافة ان شريكه تاجر يعرف كيف يعرض بضاعته. هو يأمل ان تساهم ولائمه الصغيرة والكبيرة في انصياع شريكه في السكن لأسلوب حياته وقتل اية بادرة منه للاعتراض. ذلك واضح. أول يوم أقسم بأغلظ الايمان ان يكون صهيب ضيفه على مائدة العشاء وفي الصباح التالي أحضر له القهوة بنفسه بعد ان أعدها في المطبخ، ووجد صهيب نفسه مجبراً على استخدام آليات الدفاع الذاتي التي يمتلكها ولكن بهدوء فقال:

– لحسن الحظ ان الشقة تقع بحي هادئ.

قاطعه السيد:

– كل شيء تمام، الا بعدها عن المسجد، مرات كثيرة يجبرني بعد المسجد على صلاة الجمعة هنا..

استمر صهيب ليكمل جملته:

– فيما يخص مهمتي، يساعد هذا الجو المنعزل والهادئ على التركيز فبرنامج الدكتوراه يربط الدارس داخل أربعة جدران معظم يومه.

لم تمر الملاحظة بسلاسة على أسماع السيد فتركت آثارها على شكل تعكر في ملامحه لتنتهي موجة الامتعاض بابتسامة ازدراء أعقبها سؤال جلي المعنى:

– حضرتك تدرس طب أم هندسة أم علوم؟

– كلا، حسبتك تعرف ان أطروحتي حول الشعر.

– شـــعر؟ كل هذه المســـافات التي قطعتها وكل هذه الغربة من أجل الشعر؟ عش حياتك أستاذ، كم مرة في حياتك تصل أوربا وتحصل على مكان منفرد؟

رسم السّيد لنفسه مبكراً صورة نموذجية لذكر شرقي مغتلم وجد نفسه طليقاً بلا رقيب، فبدأ يمارس موهبته في قنص من تيسر له من نساء الفرنجة كما كان ينعتهن. لم يكن بمقدور صـــهيب تجنب التعاطي مع هذا الجار، زير النســاء المخضــرم القادم من مدينة دينية تُربي يافعيها على أن أهم ما يهبه الله لعباده الصـــالحين هو اللســـان وقوة الباه وقد وهب ساكنيها لساناً ذرباً وغلمة مستشرية. ولم ينتظر السيد مضي الأسبوع الأول على سكن جاره معه في الشقة فسكب بين يديه خبرته:

– أبو الشباب اسمع، أنت حديث العهد في التعاطي مع نساء الفرنجة، سأعلمك كيف تتعامل مع فرنجية.

وتحدث عن قصته مع إحدى الموفدات الفرنسيات التي قابلها في البلاد وكيف عراها بنظراته في حفل عام فأعجبته رغم أنها كانت برفقة زوجها، ثم يسّر الطريق بحكمة وهدوء حتى يختلي بها عارضاً عليها

الذهاب برحلة نسـائية برفقة زوجته لزيارة الآثار الدينية. وهناك حضـر هو بدلاً من زوجته التي أصابها مغص مفاجئ:

– لا مدام، لا تهتمي، سوف لن تعودي خائبة، سأرافقك بنفسي..

وبعد أن طاف بها الأضـــرحة اقتادها الى فندق بحجة الراحة. وهناك حاول، أولاً أن يعرض عليها مساجاً يريح عضلاتها ورأسها الذي حطمته لا شك أصوات منبهات السيارات وادعية الزائرين وضجيجهم..

– قل لي انت هل سترفض الفرنسية العرض؟

وجه سؤاله لصهيب.

– انا لست خبيراً مثلك!

– الامر لا يحتاج الى خبرة، لماذا ترفض؟ اسمع مني، لكل حرمة نقطة ضعف والشاطر هو من يكتشف هذه النقطة بسرعة! اما الفرنجيات فكل واحدة منهن مجموعة من نقاط ضـــعف! وما الذي تفقده الفرنجية؟ عذريتها؟ حتى العذروات من جنسها لا يترددن، هذا إذا جاز لنا الحديث عن عذرية. كلا، هذا لطف مني ستتقبله بسرور، وأثناء المساج تركت أصابعي تمتد قليلاً لتكتشف أرجاء هذا الجسد الأوربي النابض..

– وهل أكملت مشوارك معها؟

– لا، هذه صارت آخر لحظة شريفة برأسي بنت الواوي. أكملت تمسيد جبينها ثم أكتافها ولما وصلت يدي لصدرها قامت وهي تصيح: ليس هذا مناسباً.

– يعني أنها رفضت وان نظريتك غير صحيحة.

– لم ترفض، هي قالت "ان الوضع غير مناسب" ربما كانت تقصد المكان أو قرب الفندق من الموقع الديني..

– رفضت لأنها لم تشأ ان تمتنع عن تقبل "لطفك" من البداية. أعطتك الفرصة لكي تثبت انت بنفسك نظريتها وليست نظريتك.

– أية نظرية؟

– النظرية التي تفترضها أية أوربية عن مقابلتها الرجل الشرقي، وهي أنه لا يرى في المرأة الا موضوعاً للمتعة.

– وهل هذا خطأ أبو الشباب؟ منذ بدء الخليقة كانت الحرمة موضوع المتعة، العرب لا تقول: كانت سلمى زوجة غيث، بل كانت سلمى تحت غيث.

أدخل السيد لحياة صهيب مصطلحات جديدة:

الموزة: هي الفتاة سهلة المنال، تخلع ملابسها كما تقشر الموزة بيسر وبدون عناء أما الجوزة: فهي التي تحتاج الى عدّة وجهد وتأني، وبينهما تقع الليمونة. أما التفاحة: فهي التي تؤكل بقشرتها وهناك المشمشة: المرأة السهلة التي لا قشر لها، لكن حذار مما ببطن المشمشة فقد تغص به ويتشبث ببلعومك ويقتلك بعد تلذذ!

كان السيد مهذاراً يتحدث بكل وقت، عن كل شيء، وواحد من مواضيعه المفضلة، خارج نطاق الايقاع بنساء الفرنجة، هو تسخيف الأدب والشعر والفن:

– ما هو الشعر أبو الشباب؟

– لم أفهم قصدك.

– أنتم معشر الشعراء تتحدثون عن المجاز والموسيقى الداخلية، لم أسمع بحياتي موسيقى داخلية وطبول او رقص في قصيدة. أنت ماجستير لغة وتعد الدكتوراه احكم بنفسك بين شعرنا وقصص السنسكريتيين الجنسية الممتعة! هل سمعت عن المرأة السنسكريتية التي جامعت ألف رجل والأوضاع التي تعلمتها؟ لا تقل لي أنك تجهل قصتها، كيف حصلت على الماجستير إذن؟

– أطروحة الماجســـتير كانت عن الاصـــل الاجتماعي لظاهرة الغزل بالمذكر في الأدب العربي ولم تكن عن السنسكريتيين!

– كل تراثنا القديم سقراطي لا متعة به. لدينا في النجف مئة ألف شاعر كلهم كأنهم يستعدون لتحرير القدس. شعر خطابي وحماسة ووطنية.. حتى تراثنا القديم خال من الإثارة.

– الأدب السومري يتحدث أيضاً في الجنس: في فصل الربيع يحتفل الســـومريون بعد حرث الحقول ونثر البذور بانبعاث تموز إله الإنجاب والتوالد، في هذا الحفل لا تجامع النســـاء أزواجهن فقط بل أي رجل يشـــئن بشـــرط أن تحرص المرأة على تجنب الســـماح لنطف الرجل بدخولها..

– ما معنى هذه الحكاية السخيفة؟ إنجاب وخصب.. أحك لي عن فنون الجنس، إبحث يا استاذ عن السنسكريتيين الذين قسموا النساء الى ظبية وفرس وانثى الفيل والرجال الى أرنب وثور وحصان، فمن كان عضوها من صنف الظبية يلائمها ذكر الأرنب، والفرس يلائمها الثور، أما أنثى الفيل يلائمها الحصـان، أم أنك لم تسمع بذلك؟ هل لدى جماعتك مثل هذا؟ خصب وحقول، السنسكريتيون صححوا الطبيعة يا استاذ!

– ما عُرف عن السومريين لا يبلغ قطرة من بحر حضارتهم.

– ولماذا عرفوا عن السنسكريتيين كل شيء؟ لماذا حين وصلت الأمور للمتعة لم يعرفوا شيئاً؟ بلد نحس وحضارة مسقرطة!

هناك في البلاد البعيدة، سمع صهيب من هذا الذي كان يسميه تهكماً (سيد العلاقات السرية المقدسة) قصصاً مروعة. عاشر السيد كثيرات معتمداً على غنى ذخيرته المالية وقدرته على إطلاق الوعود. كن بألوان ولغات وطبائع لا جامع يجمع بينها لكنه لم يجد في اي منهن ضالته. لم يحس قوة الجذب من أي منهن لكي تبقيه في مدارها أكثر من شهر واحد لا أكثر حسب قوله.. ثم بدأ يراهن متشابهات الى حد يثير فيه الملل والقرف بعد ليلة. ولم تكن كل محاولاته مرضية بل يمكن القول أن أغلبها كانت متعثرة، يبدأ الهجوم ثم يتقهقر بعد ثان مرة، وبعدها لا تنفع قوى الأغراء برفع معنوياته الجسدية الى حدها الأدنى فيستسلم للفشل، لكن لو اتوا له بأخرى جديدة ستنتعش قواه من جديد! تصلّب وتحول الى كائن كالخشب، يحيا بلا عواطف. خاصة بلا عواطف واضحة تجاه النساء. كان ينحاز للابنية والقطارات والأسواق وحتى للقمامة المتروكة في عرض الشارع لكنه لم يجد في أعماقه دافعاً للشعور نحوهن بحب من نوع ما.

في منتصف شباط من سنة سيد تقي الأولى في بلاد الفرنجة، تعرف الى جيرونيما:

– كانت أبو الشباب مثل تمثال نحته فنان مرهف، ثم نفخ الله به الروح. سبحان الخالق! نصفها برازيلي والآخر الماني والنصفان متفاهمان مع بعضهما حد العشق. حمداً لله ان الألمان منحوها البياض ورشاقة الجسد بينما حازت من البرازيل على حرارة الرغبة. لم يهمها أنني أكبرها باثنتي عشر سنة، بل كانت تتندر ضاحكة: بعد أربعين سنة، عندما تكون أنت في الثانية والسبعين سأكون أنا قد ولجت الستين، لن يتعرف أحد على الفرق بين عجوزين!

واستمر السيد بتشريح جثة جيرونيما:

وفي نهاية أيلول أتتني مبتسمة بخجل:

– سنسكن ثلاثتنا هنا!

ظنتها تقصد أختها التي كانت تدرس في مكان قريب فأجبت باستغراب:

– ولكنك تعرفين أن المكان لا يكفي لثلاثة!

– أي ثلاثة ؟ (تاكي) انا.. حامل!

– حامل؟ من أيّهم؟ هل جننت؟

– كيف تجرؤ على هذا القول؟ ممن أكون حملت؟ هل تظنني فتاة شوارع؟

– لن أعترف بالطفل، هو ليس مني، حاولي أن تتذكري من هو أبوه!

وقفت الفتاة قبالتي محملقة بي كتمثال لا بشر. كل شيء فيها تجمّد، حتى رموش عينيها كفت عن الحركة، تمعنت بوجهها، لقد تغير شيء فيها، تضاعف حجم ملامحها، أنفها قد عرض وفمها اتسع، تلك هي علامات الحمل. إذا صح ادعائها، هناك شيء مني قد تشكل في أحشائها، شيء لا أريده، كائن صغير غير محدد الملامح بعد لابد أن أمنع اكتماله بأي شكل. كررت ما قلت بحزم أكثر هذه المرة رافعاً سبابتي بوجهها بغلاظة، فتحركت ملامحها ببطئ مثل لوح جليد يتفطر، ثم انفجرت باكية وركضت الى الشارع ولم أرها بعد ذلك أبداً..

نعيمة قالت للسيد:

– لمّا انت تحبني كيفاش متبغيش ولَدْ؟

نعيمة الحائرة بين خيام القبيلة ومصطلحات ما بعد الحداثة، لم تعرف تقي بما يكفي، فهو قد مثل عليها دور الرجل الحر ولم يقل لها ان لديه فرقة من الأولاد والبنات. لم تدرك نعيمة أن رد الرجل الشرقي الإيجابي على سؤال المرأة المتكرر، اثناء ساعة الشيطان، في الفراش: هل تحبني؟ يتضمن شقاً غير مرئي هو: نعم في هذه اللحظة أحبك..

سونيا كانت واقعية وأقرت أن الحمل قد وقع خلاف الاتفاق وبالضد من رغبتها:

– لا أعرف كيف حدث ذلك. يبدو أن ســـلاحك مضـــاد للدروع، لقد اتخذت كل الإحتياطات ولم أهتم حتى عندما انقطعت الدورة، بيد أن الفحص فاجأني بالحمل!

لكن السيد لم يشعر بشيء من تأنيب الضمير أو ما يشابهه الا مع جيرونيما فتلك كانت أكثر المتضـــررات حظاً في فداحة الخســـائر. لقد تهشمت بالكامل، وفي لحظة التهشم تلك، حينما انفطرت ملامح وجهها وتفرقعت ببطئ مؤلم مثل لوح جليدي تحت شمس حارقة، أدرك السيد، كما يقول، كم كانت تحبه. هو لا يعرف للآن ماحل بها، لم تعد حتى لأخذ أمتعتها المركونة في زاوية من زوايا غرفته، وبقي أياماً بعد أن غادرته يترقب خطى شرطي يقف على بابه وبيده ورقة القاء قبض لأنه تسبب في انتحار فتاة كانت تعاشره! جيرونيما تلك، كان من الممكن ان تكون لحظة تهشمها، لحظة فاصلة في حياته فهو قد اعترف لصهيب انه أحس، عندما نظر لآخر ارتعاشــه لشفتيها وهما تنطفئان مثل لهب شمعة بائسة تهتز بيأس ضد الريح، أن انقاذها من مأزقها سينقذه هو من تيهه وضياعه الطويلين. أراد في آخر لحظة أن يضمها بين ذراعيه ويقول:

– رغم أني لم أتفق معك على خلق ثالث الا أن هذا الصغير يستحق أن يكون ثالثنا الرابط!

لكنه عندما تمعن بوجهها، أدرك أن الأوان قد فات وبدلاً من أن يلين رأى نفسه يتحجر بعد أن ظنها سترشقه ببصقة، فرفع سبابته مهدداً بغلاظة!

عندما سمع صهيب ذلك تذكر ملامح زهرة لحظة كشفت صدرها في ذلك الضحى البعيد، تذكر ملامح أنثى مجروحة، الجرح الذي لا شفاء ولا رجاء من بعده. ذات المشهد تكرر لا شك عندما طعن السيد تقي جيرونيما.

إذا صَدَقَتْ نعيمة وسونيا وجيرونيما فلماذا لا تكون سالي صادقة؟ نعيمة أيضاً ادعت حملها من السيد فأرضاها بسلسلة ذهب، وذهبت في حال سبيلها، لكن سونيا الدنماركية، أصرت على الاحتفاظ بجنينها عازمة على تسجيله كابن من علاقة خارج الزواج. لم تطلب منه شيئاً سوى أن يمسح وجهها واسمها وما كان بينهما من ذاكرته..

– لن أجعل ابني يتعرف على أبيه الوغد، ستكون حياته بدونك أكثر قيمة!

ثم صرخت بوجهه:

– أليست جريمة أن تنكر ابنك؟ ما الذي سأقوله له؟ من هو ابوه؟

– قولي له إنك حملت مثل مريم الا تؤمنين بمريم العذراء؟

تقدمت سونيا وبصقت بوجهه ثم إختفت.

ولو صدقنا ما نقله السيد عن نسائه، وهو صادق وهن صادقات بلا أدنى شك، ربما كان لديه الآن من البنين والبنات ما يزيد على خمسة. كل منهم يتكلم لغة مختلفة، ويعيش في بلاد مختلفة، كلهم لن يعرفوه ولن يعرفهم، ربما الى الأبد! سيكبرون متسائلين عن ابيهم الذي لم ولن يروه.

– وربما ستتزوج ابنتك أخاها!

قال صهيب وهو ينظر لعيني محثه بتحد، أستثير السيد فزعق:

– ما هذا الكلام أبو الشباب؟

– هذا هو تسلسل المنطق. عندما لا تعرف أنت ابنتك كيف سيعرفها ابنك الذي ولد من أخرى لا تعرف البنت ولا أمها؟

– هذا ليس ذنبي، لماذا بحق الكائنات تتشبث النساء بهذه الرغبة الجنونية لأنجاب طفل؟ كل من عاشرتها سمعت مني أني لا أريد طفلاً فوجودي هنا مؤقت، بل الحقيقة أنني حتى بدون هذا الوجود المؤقت لم أرغب بطفل من أجنبية، لدي من الأطفال سبعة من العلوية! ورغم كل التحذيرات والمحاذير والاحتياطات لم تف واحدة منهن بتعهداتها.

سأله صهيب:

– وهل تظن أفعالك خافية على العلوية؟

– لا، هي تعرف، لها حقها ولي حقي وانا لم أقصـــر بهذا الحق. لديها بيت في المنصـور ووارد محل الأقمشـة وكراج السـيارات. الحمد الله لا ينقصهم شيء!

– سيد تقي، هي في أعماقها غير راضية، لا توجد امرأة ترضى بشراكة أخرى.

– غير راضية الله معها! فإمساك بمعروف وتسريح بإحسان! تأخذ حقها وتمضي. أنا لا أجبرها على البقاء!

رأى صـهيب فتيات لا حصـر لهن في ضـيافة السـيد الذي كان كمن يجرب عينات من بضـــاعة، يراها، يجربها ثم يعيدها الى منشـــآها فلا تدخل شـقته ثانية. لم يكن الموضـوع، رغم انعكاسـه بشـكل ما على سمعته كساكن في ذات الشقة، ليشكل سبباً لجدل وخصام معه لكن حياة صـهيب لم تشهد من قبل ولا من بعد فصـلاً درامياً لا إنسانياً مثل ما تم أمام عينيه في تلك الليلة حين دعاه السـيد الى وليمة ليعرفه على ضيوفه:

– نسـيبي ياسـر أخو العلوية، وأخي الوحيد مرتضـى وابن عمتي القادم من كندا مصطفى.

كانوا كلهم متشابهين بشواربهم الكثة وأجسادهم المشعرة وأصواتهم التي لا تمنعها الشـــبابيك المغلقة من اقتحام أذان الجيران. وخلف ســـحابة الدخان التي ملأت فضاء الغرفة شغلت مكانها فتاة شقراء في العشرين وسط الأخ والنسيب عرف صهيب أن أسمها بيانكا. حسبها أول الأمر زوجة الأخ، فهي الأكثر قرباً من ســنه، لكن نظرات الأخ للفتاة وترديده عبارة:

"كزكوزمي بيانكا" أي "اكســـكيوس مي"، بين حين وآخر وشـــت أن الضيفة لا تمت لأحدهم بصلة.

سأل صهيب الشاب بدافع كسر جليد لحظات التعرف الأولى:

– هل مضى وقت طويل على تعارفكما؟

فأجاب تقي بدلاً منه ضاحكاً:

– لا، هذه تمتوعة الليلة دعاها لسهرة فأتت مثل النعجة!

أبعد ما وصـل له تفكير صـهيب أن يكون الشـاب قد تعرف الى الفتاة فدعاها الى شـقه أخيه لتوثيق التعارف لأنه يجهل مبادئ الإنكليزية. ما حصل بعد ذلك بحاجة الى مخرج عبقري ليصنع منه فيلماً تراجيدياً من ثلاثة مشاهد:

سـحب تقي بيانكا من ذراعها وبدا يحرك يديه أمامها واصـفاً شـكلاً ما مثل من يريد ان يعرض عليها شـــيئاً لتراه وأدخلها غرفة نومه ثم أقفل الباب بالمفتاح وبعد قرابة نصف الساعة، كان ابن العمة خلالها قد رفع صوت الموسيقى الى أعلى ما يمكن، أخرج تقي رأسه من الغرفة مؤشراً لأخيه بالدخول، وخرج هو ثم أشر الأخ لنسيبه بذات الكيفية، ولكن بعد قرابة نصـف سـاعة قبل أن يحين دور إبن عمته غافلتهم الفتاة وانسـلت راكضــة مرعوبة من باب الغرفة. كانت منفوشــة الشــعر ورقبتها ووجهها مليئين بالكدمات، ركضــت جارة خلفها حبلاً من الدم وبســرعة التقطت حذاءها بيديها ومضــت هاربة الى الشــارع تاركة شــالها الزهري مرمياً على الكرسي.

غرق الضــيوف الثلاثة بالضــحك لكن وجه السـيد تقي تجهم وهو يتابع خيط الدم ممتداً من غرفة النوم الى باب الشــقة، لعله خشـــي أن تلجأ الفتاة للشرطة.

لم يتحمل صـــهيب همجية المشـــهد فخرج من الشـــقة متعمداً تجاهل الضيوف ولم يعد الا قبيل الفجر عندما كان الجميع قد انصرف.

وفي اليوم التالي لم يجد في ذخيرة كلماته سوى سؤال بدا للسيد غريباً:

– ما قرابتك مع السيد ياسر؟

– أخبرتك أنه خال الأولاد، شقيق العلوية نسيت ذلك؟

كان السـيد تقي يروي قصـصـه بتلذذ وفخر الصـانع الماهر بنجاح صـنعته، لكنه في لحظة ما، ربما بسـبب من حيادية صـهيب وأسـلوب حياته المتبتل وربما هي لحظة استيقاظ مباغت لضميره، شكى لجاره إنه ليس على مايرام:

– ربما عليّ استشـارة طبيب ليعرف سـبب تعطل أجهزة حب الحياة في جسدي وروحي فلم يعد لحياتي طعم.

آخر مرة، أسـبوع بعد حفلة الدعارة العائلية التي انتهك بها فحول العائلة انسـانية بيانكا، فقد السـيد تقي فجأة السـيطرة على أعصـابه لسـبب بقي مجهولاً فإنخرط في نوبة بكاء فاجأت صـهيب. إعترف أنه بات لا يحترم أي عمل يقوم بـه. كل مـا يفعلـه كـان بنظره تـافهـاً ولا يسـتحق منـه الاعتزاز. ورغم أنه لم يحسـب صـنعة التقحيب والايقاع بنسـاء الفرنجة ضـمن ما لا يحترمه من عمل، لكنه أقر عموماً بسـخف حياته وخلوها من المعنى فهو لم يعد يؤمن بهدف محدد. فكر صـهيب أن ذلك وراء قسوة السيد المفرطة فعندما ينتهي وزن المرء امام نفسـه للصـفر، سيرى كل الناس من حوله اصـفاراً. عندما تنعدم قيمة حياة إنسـان بنظر نفسـه يتيسر امامه سبيل الاستخفاف بحياة أنسان آخر ومن ثم سحقه تماما، لكن هل يفيد بشيء أن ينصحه؟

– أستاذ صـهيب الحياة لغز، ووجود لا يعرّف، لا أعرف من أين تستمد حيويتك وطاقتك!

أراد صهيب أن يذكره باستخفافه الذي استقبله به فقال:

– أستمد الطاقة من الشعر، معنى وسحر وفرادة الحياة يكمن في الفن. النغمات التي تتكرر فتصنع لحناً جديداً والألوان التي ترفدنا كل مرة بما لم نشـــاهده من قبل، والحكايات التي لم نســـمعها من قبل رغم دورانها حولنا. العلم يكشف المجهول لكن الفن يكشف المعلوم لكي تعرفه، أنت تســـعى الى ما تجهله لتكشـــفه أما المعلوم فأنك تتخيل معرفته فلا تهتم له، لكن الفنان يبين لك جهلك به، ويكشـــف لك عن وجوهه التي لم تعرفها. مثلاً أغلبهم لا يفرق سمفونية عن أخرى، كلها يسمعها متشابهة والذي لا يمتلك حساً بصرياً ينظر للوحات الفن الحديث كلها على أنها مجموعة ألوان تتكرر بدون معنى. وظيفة الفنان هي ادخالك الى تحت سطح اللون والغوص معك تحت أمواج النغم، ليعطي لحياتك بعداً آخر بدونه سيبقى فهمك لها سطحياً.

كان كأنما يتحدث ليبرهن للسيد أنه وجود تافه لا يستحق الوجود بمدينة متحضرة، فأي جملة سيفهمها هذا الذي لا يهمه في الحياة سوى أسفل بطنه ولا يهمه من الزمان سوى ساعة شيطان؟

– لا أعرف، أستاذ صهيب ربما يكون كلامك صائباً فأنت في النهاية لا تعاني ما أعانيه وتنام ليلك دون كوابيس.

أراد أن يسـأله: ما نوع هذه الكوابيس التي تطاردك؟ فصـهيب نفسـه لا يعرف أي نوع حياة تلك التي يعيشـها السيد، بعد أن صـدمته بقربها من حياة البوهيميين البدائيين قبل أن يطأ الانسـان عتبة الحضـارة. لابد أنه كابوس بيانكا وجيرونيما ومثيلاتهما مثلما يطارده هو كابوس زهرة. ترى أي كابوس يليق بتناوب آل السيد الأربعة على جسد فتاة نحيلة، وكيف يتشارك رجل مع زوج أخته في النوم مع امرأة واحدة؟ لا، صـهيب مازال إنساناً مقارنة بهذه الوحوش!

بعد عودته من غربته ذات السنوات الأربع، تفاقم حنين صـهيب لمزهر. أحس خطيئة جحوده وإهماله الفتى الريفي الذي كان وراء بلوغه ما بلغ، كان الهيل والسِعْد يتثائب من شدق ذلك الولد النقي المعطر برائحة طلع النخيل. كان يحب قرط بذور الهيل والسِـــعْد، على وجه الخصـــوص عندما يتفق مع زهرة على لقاء! ومع هذا الحنين، ازداد شـــوقه لكل قديم. الجديد سـم ينخر عظامه! الجديد لا طعم له. أصـلاً لا جديد له، هو كله ماض لم يشـأ أن يمنحه قدره الذي يسـتحق. منذ شـهر، شـرع بهمة محمومة بجمع صـــوره وأوراقه القديمة، وحاول نفخ روح الحياة بالعلاقات التي طمرها غبار التجاهل. كان العتيق على الدوام عالمه الشاعري.. سوق الهرج ببغداد مثلاً الذي كان يسحره بالحكايات الخفية التي يحملها العتيق. سوق الصفافير ومحلات السيارات القديمة، والكتب شبه التالفة في مكتبات شارع السراي وشناشيل المربعة وسيد سلطان

علي وفضوة عرب والمقاهي متآكلة الكراسي المتناثرة على جانبي شارع الكفاح. ولكل ذلك عندما طلب منه أســـتاذه الإيرلندي مســـاعدته في تأجير مكاتب لشركة أحد معارفه ببغداد اختار صهيب عقاراً قرب شارع النهر. كان اســـم رجل الأعمال مايكل زايلمان الذي تحتل شـــركته، أو شـركاته، مكانة مهمة بين مؤسـسـات اللوجسـتيك والتسـويق في أوربا، إضـافة الى عزم رجل الأعمال على فتح مؤسسـة نشر وإعلام ستستقر بدبي. سـبق لمايكل أن تخرج في كلية اللغات الشـرقية، لذلك فهو يتكلم العربية والفارسـية والتركية والكردية بمهارة. استقبله صـهيب في المطار ورافقه مباشـــرة الى موقع الشـــركة الذي اختاره فأعجب بالموقع العريق، واثناء حديثهما أعرب مايكل عن حاجته لمنســـق لمكتب الشـــركة في بغداد:

– ما رأيك ان تكون أنت المنسـق؟ من الصـعب عليّ الوثوق بغيرك، لا ضرورة لوجودك الدائم في الشركة، لكن لنقل ستتفرغ يومين في الأسبوع لنا.

– فاجأتني بهذا الطلب، وددت لو أفهم منك مهامي كمنسق.

وبعد شرح مقتضب أبلغه صـهيب بالموافقة. بعد شهر اشترى مايكل بيتاً على ضفة النهر الغربية، وفي ذلك البيت ستولد المعجزة.

صباح الخميس، رابع ايام العمل الرسمي، أتى المدير بالملابس العربية، دشداشة ويشماغ وعقال ثقيل، لكن هذه الهيئة لم تكن مقنعة تماماً، فقد افتقرت لشاربين كثين يتلاءمان مع لون العقال الأسود ولم يتوان مزهر عن التصريح بملاحظته:

– تنقصك الشوارب شيخ مايكل.. بدونها سيكشف أي عربي أنك شيخ ملفق!

فاجأه مايكل أمام الجميع:

– وأنت من أين لك عيونك الملونة؟ لازم الحجية عاملة" قارش وارش"!

نظر صهيب بوجهه مفتوح الفم من الدهشة:

– غريب! مايكل، من أين تعّلمت القارش والوارش؟ هذه عراقية صرفة!

– من حسنة أم الهيس.

– ستجنني، وما أدراك ما الهيس؟ البغداديون أنفسهم لا يعرفون هذه المفردة!

– وما الذي يعرفه البغداديون؟ حتى الخرّيط لا يعرفونه..

– ومن علمّك ما هو الخرّيط؟

وللحظة، عندما دقق بملامحه أكثر، خيّل له أنه رأى مايكل هذا قبل سنين في مكان ما. ربما عاش كل هذه السنين في العراق أو أنه لم يكن إيرلندياً.

– حتى زوجتي لم تتعرف عليّ في الصورة الأخيرة. صرت عراقياً!

قال مايكل بزهو.

فرد مزهر وبدون تفكير:

– ربما كنت عراقياً من الأصل!

لم يهتم مايكل بملاحظته فمرت من أمام رأسه بسلام.

لم يفهم كيف عرف هذا الإيرلندي المفردات العراقية الجنوبية، سأل موظفاً مصرياً كان قدم مع الشركة بعقد لسنة فأجاب:

– لا تستغرب، واحد من أسرار تقدم الأوربيين، أنهم يتقنون صنعة "إستثمار الفرصة" حتى حدها الأقصى. إذا عاشوا شهوراً ببلاد سارعوا للتحدث بلهجة أهلها وعاداتهم ومعرفة مميزاتهم كأنهم باقون بها الى الأبد. إذا دعوتهم لأكل سمكة صوروها واستفسروا عن اسمها ومكان

عيشـها وكثافة وجودها في الأنهار وموسـم تكاثرها، لديهم رغبة جامحة بعيش الحياة بكل لحظاتها وتفاصيلها، يستحقون الحياة.. رغم أنانيتهم!

– أعرف ذلك، لكن الهيس والخرّيط والقارش والوارش مفردات محلية لا يتعلمها الا أهل البلاد المحليين، هذا مثل أن يغني لك توم جونز موال ثم سلامتها ام حسن!

ضحك عبد العظيم المصري مبدياً توقعه لكل شيء من هؤلاء الأوربيين:

– هم يعرفون بلادنا أفضـل منا، كشـفوا لنا أسـرار اللغة الهيروغليفية وفسروا لكم معاني الكلمات المسمارية، ولا أستبعد أن يكتبوا لنا وصفات عمل الفسيخ، صحيح أيه الخرّيط والوارش ده؟

مع كل ما حكاه عبد العظيم الا أن شـخصـية مايكل بقيت محاطة بالإثارة والغموض فهو الى جانب معارفه الثرة باللغة والتراث العربيين محيط بكل جوانب الحياة. في حديث عن فلسـفة أبو العلاء المعري ردد مايكل البيت الشهير:

هذا جناه عليّ أبي.. وما جنيت على أحد

ثم التقت لمزهر مبدياً إستغرابه من عزوبيته:

– غريب ان تكون عربياً ولا تكون متزوجاً بهذا العمر، أو ربما تكون معريّا؟

– فيّ شـــيء منه، الزواج الشـرقي إكمال لمتطلبات الحياة لا أكثر، هو إجراء آلي، مثل دخول المدرســـة، له ميعاده الذي لابد أن يأتي به ثم تأتي تبعاته المنتظرة أولاد.. أولاد.. أولاد حتى نهاية الطمث! لا يشـــبه الزواج لدى الاوربيين والكنديين والامريكيين.

– نعم، لذلك ســـألت. في أوربا لم يعد الزواج شـــكلاً وحيداً، غير أنه انتهى منذ زمان لأن يكون بديهياً. حل محله العيش المشـــترك باتفاق الطرفين وبدون عقد ولم يعد وجود الأولاد بديهياً. أما سؤالك لرجل شرقي تجاوز الثلاثين هل هو متزوج فســـيبدو غريباً وغالباً ما يكون الرد عليه باستغراب.. أليس كذلك؟

– كما يرد في التراث هو إكمال لنصـــف الدين. واعتقد أن ســـببه قلة الناس اللازمة للحروب آنذاك، مازال للآن مترابطاً مع هدف التكاثر.. ثلاثة أربـاع الرجـال لا يبتغون من زواجهم غير هذا.. الأولاد الذكور على وجه الخصـــوص، وأغلبية الرجال لا يودون رؤية زوجاتهم بعد عودتهم لبيوتهم.. ولو خيروهم لاسـتبدلوهن بأخريات.. كل سـنة واحدة. أما ما ينمي فيهم هذا الأمل أي اســتبدال الزوجات، فهو أكثر اجراءات الآخرة إبهاراً، وهو تســريح النســاء من رجالهن ومنح الصـــالحين منهم

حرية اختيار عشـرات الحوريات. ذلك هو الكسـب العظيم الذي يخفف عن المجتمع الذكوري وطأة حياة لا تطاق ويدفعه لتلمس أســـفل بطنه بعد كل صلاة.

مضـت حياة صـهيب مع الشـركة باهتة. لم يكن من رغباته في أي يوم أن يشتغل بترجمة العقود التجارية وتنسيق اجتماعات توقيعها، لكنه عدّه عملاً انتقالياً سـيضـمن له فرصـة التفكير بهدوء فيما سـيلي من سـنين. وعندما وصلته في بداية شهر كانون الثاني دعوة عبر البريد الالكتروني من مايكل زايلمان لحضـور حفلة عشـاء جماعي للتعارف في بيته على شـاطئ النهر قرأ الدعوة بعينين حياديتين دون رغبة واضـحة بالحضـور. إذا حضـــر فســيكون ذلك لتســجيل وجود لا غير فهو عموماً لا يميل للحفلات البروتوكولية، خاصة التجارية المعبأة بروائح النفاق الاجتماعي والمضــمخة بزيت المجاملات المصــلحية حيث يشــعر الجميع، ماعدا الرؤساء، أن وجودهم تسجيل عدد ليس الا. هم موجودون هنا اليوم كي تنجح صـــفقات الغد. وجد مزاجه مزاج مهزوم بمعركة هو من بادر في الهجوم فيها، فهو الذي تحمس للعمل مع هذا الرجل لكنه يرى نفســـه الآن غريباً عن الجو تماماً. بعد مداولة قصـــيرة مع نفســـه تذكر أن زايلمان وعده بتعريفه على زوجته التي قدمت معه فوجد عذراً للحضـور. لا يدري كيف يفســـر ما فكر به في تلك اللحظة وهو أن زوجة مايكل هي من ســيكشــف عن وجهه الحقيقي! لربما ســتباغته بإجادتها عمل

الهيس والخريط مثل زوجها! في الساعة السادسة مساء الخميس، اكتظت قاعة الجلوس في الجناح السكني بالمدعوين، وعندما دلف صهيب من الباب، كان زايلمان مشغولاً بألقاء كلمة الترحيب التي تناثرت من جانبيها الأرقام والوعود والتمنيات. مضت الدقائق الأولى بعد الإنتهاء من الكلمة ثقيلة قبل أن ينتبه مايكل لصهيب متجهاً نحوه ثم يأخذ بيده ويرافقه الى فضاء المطبخ المنزوي في ركن بعيد من الجناح قائلاً بإعتزاز:

– سأعرفك على زوجتي. كانت وجلة من القدوم معي الى هنا، سمعت ما يسمعه الجميع عن نظرة العربي للمرأة الأوربية فتخيلت البلاد ساحة معارك لن تنته، رغم أنها من عشاق الثقافات الشرقية.

كاد صهيب ان يضحك: تقابلني فتتعرف بنموذج آخر قبل أن يأتيها سيد تقي!

وهما في طريقهما للمطبخ سأل لتجاوز لحظات الصمت:

– المدام من المهتمين بالتراث الشرقي كما سمعت منك اليس كذلك؟

لم يلحق مايكل الجواب فقد فتح الباب، على بعد قرابة الخمسة أمتار منهما وأطلت منه امرأة بقامة سامقة يلفها فستان عنابيّ طويل يصل حد كعبيها، فصاح مايكل:

– ها هي زارا زوجتي قادمة..

– زارا؟

صاح صهيب!

لكن مايكل لم يعر صـرخته اهتماماً إذ تقدمت المرأة من بعيد، وفي تلك اللحظة تمدد الزمان في رأس صهيب، تباطأت خطوات المرأة وهي تتجه نحوهما مثل لقطة لقاء بطيئة في فيلم رومانســـي، ومع كل ارتطام لقدميها بالأرض كان صدرها يترجرج داخل كيس العنّاب الذي احتضنه وكأنه يريد الفرار. كانت مثل مهرة وجدت باب الإســـطبل يفتح فجأة ففرّت بعد سجن طويل، أراد الاستنجاد بصاحبه متوسلاً:

– هدئ من جموح هذه المهرة، ستدوسنا!

لكنه لم يلحق فوجدها أمامه مادة يدها بملامح مشفقة.

قال مايكل لزوجته مبتسماً:

– هذا صديقي صهيب رهيّف، ثم التفت اليه:

– زارا، زوجتي!

صعق صهيب، تجمد، جف حلقه، وتخشبت عضلاته ولم يتمكن حتى من نطق الكلمة التقليدية:

تشرفنا!

أية زارا هذه؟ مايكل العب غير لعبة، هذه زهرة!

وقفت زهرة أمامه تنظر اليه باسمة وقد كورت شعرها الكستنائي على رأسها فبدت مثل بنت المعيدي التي كانت صورتها تنير فضاء صريفتهم!

– زهرة! يا إلهي، ما الذي تفعلينه هنا؟ من اين جئت؟

همس لها باندهاش!

خالها سترمي بنفسها عليه فتراجع لا إرادياً محاولاً مد كفه مصافحاً واجتاح رئتيه ضوع اليقطين والخيار والبطيخ. كانت عارية الذراعين فداهمته صورة صدرها العاري الذي كشفته له في ذلك الضحى البعيد:

هذا هو نيشان عنوستي، سوف لن أتزوج يا مزهر أبداً!

" لكنك تزوجت! لم تبق عانساً زهرة، كيف تزوجتِ هذا؟ من الذي أوصلك اليه أنت الريفية التي لا تكاد تعرف أكثر من كتابة اسمها؟

كيف التقيت به؟ أم أنها لعبة من أحد ما؟ ما الذي فعلته بنفســـك؟ لقد غيرت شــيئاً ما في وجهك لكي تختبريني، تغير لونه بفعل المســاحيق. التزويق ليس لك"!

لم تتكلم زهرة كثيراً ربما كي لا تجعله يكتشف ركاكة لغتها الإنجليزية.

عادوا الى القاعة وقد تشـكلت كتلة ضــباب حجبت عن عينيه رؤية اي شــيء سوى زهرة القديمة التي انفردت به وصـوتها الهادئ ينسـاب في فضاء الممر. سمعها تروي حدثاً غامضاً عن مهرة فتية تركها صاحبها بمنتصـــف الدرب ومضـــى فتاهت في البراري. كان أشـــبه بالمنوّم مغناطيسياً، يرى كل شيء أمامه سابحاً وسط غمامة من سحاب.

في القاعة الضـاجة بضـحكات الرجال وأحاديثهم المجاملة التي لا معنى لها، جمع كل ما تبقى من طاقته النفســـية لكي يفصـــل خطواته عن خطواتها. أمســك بكرســـي وتركها هي ومايكل يمران متعمداً حديثاً مع أحد الضــيوف لكي يتمكن من الثبات بمكانه. واســتغل فرصـــة حديث الزوجين مع ضــيوفهما للابتعاد عنهما وافتعال انشــغاله بإلتقاط صــور للحاضـرين. صـوّر زهرة بالفيديو تصـويراً تفصـيلياً. لاحظ كيف كانت تتجنب الاقتراب من الضـيوف، نعم هي تخشـى الحديث الطويل. تناول العشاء سارحاً في فضاءات بعيدة صارفاً أقل ما تمكّن من كلمات، بما يكفي لحفظ حدود اللياقة، اللياقة فقط.

زهرة لنتغالب بأنواع الاسماك:

البني، العكد، الشلك، الجصان، الشبوط، الخشني، الحمري، الزوري، الجري، الكطّان، البز، البياح، الزبيدي، الشانك، الصبور، الكباب، المخيط، المزلك، زهرة المزلك.. غلبتك!

نظر لها نظرة خاطفة، ابتسمت، خالها سمعته وهو يقول: غلبتك!

فجأة رأى فستانها العنابي يسقط الى الأرض فستر عينيه بكفيه، إنها هي كما كانت، لم يتغير شئ بها! لم يتحمل أن تكون زهرة وهو تحت سقف واحد بعد فراق سنين طوال ولا يمكنه حتى الجلوس قربها. لا يستطيع حتى تعبئة أنفاسه من عطر اليقطين والسعد والمسك والقرنفل العابق من بين طيات ثوبها العنابي الساحر. لا، هذا ليس عدلاً. بعد أقل من ساعة داهمه صداع حاد، وغادر مترنحاً من هناك الى بيته.

في اليوم التالي عاتبه مايكل على مغادرته المبكرة:

– فاتك أجمل ما في الحفل، كانت أمسية رائعة أعجبت الجميع حتى أن زارا قدمت أغنية عراقية صفق لها الجميع! بالمناسبة هي افتقدتك واستغربت مغادرتك المبكرة.. كانت تود معرفة بعض التفاصيل منك!

صـــمت صـــهيب وأطرق للأرض. زهرة افتقدته! يا لهول هذا الحدث! تأتيه من أعماق السّموات بلا انتظار، وهو يتركها في أول لقاء بعد فراق عقود. هي تفتعل مناسبة للحديث اليه وهو يغادر القاعة بكل فضاضة!

– لا بأس يوم غد ستأتي الى المكتب فلدينا جلسة تقييم.

عقّب مايكل مطمْئناً.

لم ينم صـهيب ليلته، وفي اليوم التالي حضـر مبكراً وبقيت عيناه تبحثان في أرجاء القاعة. مايكل قال إنها سـتحضـر الجلسـة معه، مايكل يريد الإمعان بتعذيبه، لا، هذا خروف مســـكين لا علم له بالأمر، لا بزهرة التي اصـبحت زارا ولا بقصـتها. ما حدث كان من تدبير زهرة. لم يكن يصـــدق أن يأتي يوم يجمعه بها، وفي مثل هذه الظروف التي لا يعقلها عاقل، لكنها وللحق ظروف ساحرة مفاجئة، صهيب لا تنكر.

هل هي مسرحية معدة سلفاً؟ ومن هو مخرجها؟ وما غايته من كتابتها؟ وكيف وصـلت زهرة له؟ أين كانت كل هذه السـنين؟ هل هي صـدفة غريبة؟ أسئلة حائرة لا جواب لها!

هذه المرة سيحسم أمرها، سيحاول الاختلاء بها ومعرفة الحقيقة منها. لا داع للاختفاء فهو يعترف بذنبه، هو الذي تركها وعليه تحمل نتيجة ما فعل!

في حدود العاشرة، دخل مايكل الباب برفقة زارا وانشغل بمحادثة شخص ياباني أو صـــيني. فكر صـــهيب بطريقة مغامرة تمكنه من التحدث لها على انفراد، لكن قشـعريرة اجتاحت أعضـاءه عندما تخيل نفسـه ينطق أولى الكلمات، ما الذي سـيقول لها؟ هو الذي تركها، هل سـيعتذر لها؟ والأهم من هذا كله هو لم يستوعب بعد كيف يمكن أن تعود زهرة عبر هذا الدرب الملتوي؟ الم تجد طريقة أســهل؟ وجد نفســه غير مســتعد لمخاطرة معرفة الحقيقة. هذا ليس حدثاً عادياً. في كل الأحوال، زهرة لا تريد رؤيته للاســتفســار منه عن تفاصــيل كما توهم مايكل. المرأة نصــف عاطفة ونصــف انتقام، هي انتقمت من صــدرها العاري ومن اســتهزائه بها. لا تجرح كبرياء امرأة. لا تدلف لمجاهل عالم غامض اسـمه مشـاعر امرأة وتتطاول على صـرح أنوثتها فأنت تدخل غابة لا تعرف ما بها. ربما تريد رد الطعنة اليه، فزهرة ما بعد حدث الصــــدر العاري، هي غير الفتاة الوديعة التي قبله. غادر المكتب بعد انتهاء النهار، وبدون مقدمات أرسل الفيلم القصير الذي سجله لزهرة في الحفلة الى أخته ساهرة ثم اتصل بها:

– ساهرة، كيف حالكم؟ البارحة حدثت معي حادثة مدهشة، دققي جيداً هل سبق لك ورأيت هذه المرأة التي أرسلت لك صورتها؟

– بحثت في الفيلم عنك فلم أجدك، من هم هؤلاء؟

– أنا الذي صورت الفيلم وكان غرضي أن ترين تلك التي ركزت عليها!

– جيد، سأدقق به مرة أخرى، انتظر..

تخيل صـــهيب أنه ســمعها تصــرخ بخفوت مثل من تفاجأ بشـــيء غير متوقع: "ياربي"!

– لا! قالت نافية بثقة.

– لا تتسرعي! الا تشبه واحدة من النساء اللواتي قابلتهن بحياتك؟

ترددت قليلاً وكأنه سمعها تتمتم مع أحد ما قربها فصاح:

– من يقف معك؟

– لا أحد، انا وحدي في المطبخ.

أها، قال لنفسه، عَرَفتْها! ولكنها تريد أن تخفي مشاعرها الحقيقية..

ثم استأنفت ساهرة بكلمات مخنوقة:

– من أين هذا الفيلم؟ يبدو أنها حفلة ولكن ليســـت عندنا، لم أر هذه المرأة أبداً لكنها تشبه كل الأوربيات. هل هي ممثلة؟

–أية أوربية؟ أية ممثلة؟ تذكري جيداً، عودي سنيناً الى الخلف..

– لم أرها قلت لك، أنا متأكدة.

– ســـاهرة لا تركزي على الأناقة والثياب والأصـــباغ، دققي بالملامح بطريقة ادارة الرأس والاصغاء لمن يتحدث معها..

– يا أخي دققت ودمعت عيناي من البحلقة، لا أعرفها..

– هذه زهرة.. أنسيتها؟

– يا ساتر استر، هل تمزح؟ ما علاقتها بزهرة؟ هذه امرأة أوربية لا تشبه أية امرأة منا..

– أوربية بالشـكل الخارجي، لكن ركّزي أكثر، البســيها ملابس الريف، الملامح نفسها، الشعر وحده هو ما تغير. صبغته فزاد توهجاً، العينان، الفم، نظرتها الســـاهمة، كل شـــيء بقي على حاله. أنا لا أكاد أفرق بينهمـا، الا يمكن أن تكون هـاجرت الى ايرلنـدا وتزوجـت هنـاك من إنكليزي؟ حتى اسمها هو نفسه زارا يعني زهرة..

– زهرة المســـكينة تهاجر الى ايرلندا وتتزوج إنكليزي؟ ما الذي تقوله، شربت اليوم أكثر من اللزوم! هذا مستحيل، لا أعرف كيف توصلت الى

هذا الرأي. زهرة شيء وزارا شيء مختلف. قد يكون هذا اسم أجنبي شائع..

لم يقتنع، يعرف أن أخته تريد صرفه عن العودة للتفكير بزهرة مجهولة المكان، فهي شعرت بآثار تمزق أمعائه وسمعت حشرجة قلبه عندما نقلت له الخبر قبل سنين:

– أتعرف، لم أكن أود إخبارك، لكن، رأيتها في المنام وحلفتني أن أخبرك بوضعها، زهرة ومن تبقى من أهلها اختفوا فجأة من القرية!

كلا، يا أختي، لا ترأفي بي، إذا اختفت زهرة فهي اختفت في دبلن، هاجرت وتعلمت الانكليزية ثم رآها مايكل زايلمان. أوربا وحتى امريكا أو استراليا لم تعد بعيدة أو مستحيلة، الآن بإمكان أي فلاّح يتدبر مبلغ التهريب أن يهاجر ويتعلم اليس والنو ثم يحصل على الجنسية فيصير محيسن انكليزياً وجسومة أسترالية.. ربما أُجبرت على أن تعمل عاملة تنظيف في شركته فرآها مايكل وسحره جمالها، الأوربيون لا يقرون بالفوارق. حبهم يعميهم، أميرهم يتزوج نادلة مطعم، ووزيرهم يشغف بمحاسبة بسيطة. ملك اسبانيا تزوج من العامة، وفي السويد وبريطانيا تكرر ذات الأمر. نعم هاجرت، آه، الآن فهمت معنى نظرتها الوحشية لي عندما كشفت عن صدرها، لم تكن نظرة بل تهديد بفعل ما لا يخطر على بال وها هي فعَلَتْها...

مايكل زايلمان لم يقل له الحقيقة وأخته كذلك، بعض الحقائق ثقيلة لا يقدر المرء على دحرجتها من الفم، ولكن ما أدراه أن زايلمان يعرف علاقته بزارا أو زهرة السابقة؟ كلا، هي زهرة من خطط، ربما من البداية هي التي أتت بزايلمان الى بغداد. هي من زيّن له فكرة العمل في العراق، ومن حرضه على الاستعانة بمترجم خبير في العربية والانكليزية، هل مازال حبها له مستعراً أم فعلت ذلك انتقاماً لعزتها؟ هذا هو السؤال الكبير وآه لو استطاع الانفراد بها لدقائق!

مضت أيام ملتبسة. بدا أن مايكل قد انتبه الى الأمر، فعندما كانا يلتقيان، وعندما يفاجأ بوجودها كان صهيب يدفن نظراته اللاإرادية لها بالأرض أو يحولها الى نظرات بلهاء بلا اتجاه. مايكل نفسه بدأ يحتاط للأمر حين يلتقيه ويكون متأبطاً ذراع زارا فكان يفلت ذراعها برفق في كل مرة.. كما لو كانت مسايرة منه للارتباك الذي يحدثه ظهورها في ملامح صديقه وحركاته، لعله يتساءل مستغرباً:

ما الذي جرى لهذا المتعلم؟ ما الذي يغيظه بظهور زارا معي؟

– السيدة من الريف؟

سأل صهيب مرة بدون مقدمات فأجاب مايكل بتلقائية ولكن باهتمام من احتاط لمثل هكذا سؤال وتوقعه:

– الريف؟ لا! هي كانت تســـكن توللامور أعرق أحياء دبلن هل لك معرفة بأحياء دبلن؟

اضطرب صهيب لكنه واصل بما أراد أن يبعد عن سؤاله اية شبهة:

– كلا، لم أزرها، لكن، لكني ســـمعت المدام تنطق بعض الكلمات بما اعتقده لهجة ريف إيرلندا..

رد مايكل بارتياح ملحوظ:

– كلا، هي من دبلن، ربما أنا إن عرفّت نفسي سأقول أن فيّ شيء من الريف الإنكليزي فأنا من الأطراف الأقل تمدناً، تعارفنا في مطعم صباح الأثنين وفي المســـاء زرتها في بيتها، كانت وحيدة، في اليوم التالي تزوجنا! وما زلنا منذ ذلك اليوم البعيد معاً..

– عجيب!

قال بما يشـــبه الحشـــرجة. ورغم أنه أراد التأكد أكثر فيســـأل منذ متى بالضـــبط؟ وهل هي مهاجرة الى ايرلندا، لكنه أحس بحراجة الســـؤال وبذات الوقت بزيادة قناعته أنها هي زهرة. الم يقل كانت وحيدة في بيتها؟ لا يمكن أن يكون الشـبه بين هذه السـيدة وزهرة الى هذا الحد، كالشـبه بين مزهر وصـهيب هما حالتان لشـخص واحد! لماذا تزوجت

زهرة وهي التي رمت بوجهه نيشـان عنوسـتها الأبدية؟ ولماذا تزوجت هذا الأوربي؟ هل خشـيت حقاً ألّا تكون عذراء؟ ربما، وقبل كل شـيء كيف وصـلت ما وصـلت اليه؟ ثم كيف عادت؟ وكيف اتفق أن يعمل في شركة تعمل هي بها؟ كان مكتبه لسوء حظه بعيداً تماماً عن مكتب زارا فهي تدخل بسيارتها من ناحية الكراج ومنه الى باب جانبي يصلها للمكتب المجاور لقاعة الاجتماعات، وهو يدخل من الباب الرئيس حيث مكتب مايكل في الجهة الأبعد عن الكراج. كان لا يراها الا لماماً، حين تأتي بمهمة عاجلة للتشـاور مع زوجها او مع المحاسـب، أو عندما يتوجهون سوية لتلبية دعوة اجتماعية، وفي كل مرة من تلك المرات كان يحس إشارة غامضة تنطلق منها باتجاهه. مرة توجه له نظرة خاطفة لا يكاد يلحق الإمساك بها، وثانية ترفع متعمدة من نبرة صوتها عند نطقها مقطعاً معيناً مثلما فعلت قبل أسـبوع عندما تنهدت وصـاحت ناظرة لدجلة:

آه ماء النهر، أنه يحملني الى الطفولة ثانية!

تلك إشارة واضحة لم يفته التقاطها. هي تريد تذكيره بماضيهما، لكنه كان يؤجل ساعة المصارحة الى وقت مناسب تماماً، يريدها هي أن تبدأ. تكفي بداية بسيطة لكي يبدأ هو الآخر. بعد سلسلة من هذه الاشارات والتلميحات النسائية المرهفة، والمرأة بارعة في صياغة الرسائل

ذات المظهر البريء الذي لا يورثها اية إدانة مستقبلية، قدمت الى مكتبه قبيل موعد استراحة الظهر:

– وددت الحديث معك عن ترجمة بعض عقود الصفقات إذ يتوجب عليّ أن أخبرك الآن أنني سأنتقل للعمل كمديرة في فرع آخر، في البصرة، وقد لا تجمعنا الصدفة ثانية!

تجمدت أوصال صهيب وجف حلقه عندما سمع عبارة "قد لا تجمعنا الصدفة ثانية"، كيف وهو الذي وصل مرحلة اليقين أن زارا هي زهرة لكنها أرادت أن تذله فتضعه بمعارضة نفسه وتدينه باستنتاجاته ثم تكشف نفسها له؟ كان يأمل أن تعترف له بتنكرها على الأقل، وتكشف حقيقة شكوكه التي عذبته اياماً.. أرادها أن تفتح أمامه الطريق لكي يعتذر لها عمّا سببه، ثم أن يمضي أبعد فيصحح مسار حياته كلها، يبدي استعداده لإصلاح ما تخرّب، لكنها بقيت مصرّة على إنكار أصلها.

جمع كل ما لديه من طاقة وحاول رصف جملة متماسكة واحدة، لكن ما غادر شفته كانت كلمات راجفة، مضعضعة، متوسلة تبكي:

– كيف، لا تجمعنا، الصدفة.. ثانية.. سيدة زايلمان؟

– آه سـيد رهيّف غير ذلك، نسـيت ما جئت من أجله، أنا كما ذكرت سأتولى إدارة فرع البصرة، هل يمكنك مساعدتي؟ انا أبحث عن حاجب يعتني بمكتبي الجديد في البصـرة، شـخص موثوق من معارفك ربما، بمستوى بسيط، يرتب المكتب وينظفه ويجدول مقابلاتي. يكفي ان يجيد القراءة والكتابة، ويُفضـل أن يكون كبيراً في السـن. في حالة الآهلية يمكنني تثبيته بعقد دائم. كما تعرف معرفتي بالناس هنا أولية. أنتظر إجابتك الأسبوع القادم!

خرج صـهيب من مكتب الشركة محموماً. الأقدار تتلاعب به مثل قشة في ريح عاتية. كيف سـيديم اتصـاله بزارا وهي تبعده عنها برفق؟ هل سـينتظر الى أن تطرده نهائياً فيطلب الصـفح مثل جندي هارب؟ وأي حجة لديه سيستخدمها من أجل رؤيتها؟ لابد له من ان يراها، بل من أن يبقى قريباً منها، لديه الكثير مما يريد قوله. فكّر كثيراً لكنه لم يتوصـل الا لذات الفكرة:

زهرة تريد اختباره! تتعمد التلاعب به لتقف على ردود فعله.. عرفت أنـه لم يحب غيرها فبقي أملها حياً.. لكنها امرأة اهينت انوثتها على يديه، وليس سـهلاً عليها عرض نفسـها ثانية عليه. لابد له من دفع الثمن. هو سيبادر! سيقاتل من أجل البقاء على صلة بها.

وفي الأســـبوع التالي قرر خوض المغامرة التي لا بديل عنها حتى نهايتها:

– أنا.

– ماذا؟

– أنا هو الحاجب الجديد الذي طلبته لمكتبك في البصرة!

ضحكت زارا ثم نظرت اليه مندهشة:

– معقول أم أنك تمزح سيد رهيّف؟

– لا أمزح وما قلته هو قرار!

– لكن، هذه مهنة خدمية غير مهارية وبســـيطة لا تليق بك، بل برجل مسن لا مؤهلات له!

– الجوهري هو أن يكون العمل باعثاً لراحة الفرد، بعدها لا شــيء يهم، ثم ان قرار انتقالي الى هناك كان قبل تفكيركم بفتح مكتب البصرة. كان ينتظر الوقت الملائم، وها هو الوقت قد حل!

– ولكن، فاجأتني، أنا بصراحة، وكي لا يحدث سوء فهم، لا أستطيع منحك صلاحيات أو مهاماً أكثر من مهام حاجب، لأن قوام فريق العمل مكتمل حتى الراتب سيكون مناسباً لوظيفة بسيطة، ربما نستطيع البحث عن عمل مناسب لك في شركة أخرى..

– لا اريد العمل في شركة أخرى! وليس الراتب هو هدفي! أريد أن أكون حاجباً في مكتبك!

– حيرتني، الا يشعرك هذا بالغبن؟

ثبت عينيه بجرأة متعمدة بعينيها وقال:

– كلا. لا يشعرني! سأحس بالراحة!

أغلق حواسه وكل مداخل الشعور لعقله، وقرر ألّا يخجل ولا يشعر بالحرج، زهرة ستتخذ قرارها الحاسم بعد أن تتأكد من صدق مشاعره. هذا أقسى اختبار أرادته أن يخضع له ولا بد له من الصمود. أهم ما يجب عليه فعله الآن هو الاستمرار في هبوط سلّم تنازلاته الى أن تتيقن أنه مستعد لتنفيذ كل ما تطلبه، تماماً كل ما تريد منه. أمر وحيد خشي حدوثه هو أن يثير انتقاله من مكتب بغداد الى مكتب البصرة شكوك المدير. أين سيجد صهيب عذراً مقنعاً يجعل من استقالته من منصبه وانتقاله الغريب الى البصرة المتوافق مع انتقال زارا أمراً طبيعياً؟ وكيف

إذا عرف مايكل انه سيشتغل حاجباً في مكتب زوجته؟ لم يطل التفكير فلفق قصـــة عن ضـــرورة وجوده قرب قريبته العاجزة في البصـــرة وأن الظروف الحســنة توافقت مع افتتاح فرع للشــركة هناك، وأوحى لمايكل أنه سـيسـتمر بمهام ترجمة العقود لفرع الشـركة الرئيس ببغداد إضـــافة لمهمته في البصـــرة. وبقي يأمل أن تكتم زارا عن مايكل طبيعة العمل الذي سيمارسه. إذا كانت هي زهرة، سوف تعرف كيف تمرر الأمر من بين أذان وعيون مايكل دون إثارة حفيظته! ولكن بالمقابل إذا كان مايكل جزءً من خطة تهدف لإعادة زهرة الضـــائعة وإرجاعها لحبيبها البكر فهو لن يكون عائقاً بأية حال. وعندما لم يعترض مايكل، واكتفى بما سمعه من زوجته، بعد ان عرضت الخبر بصورته الباهتة ضمن حديث عام أنهته بسفر صهيب الى البصرة للبدء بمهامه في مكتبها واستمراره بمهام الترجمة، ايقن أن زهرة تقود المركب بمهارة لا نظير لها باتجاه الشاطئ الآمن.

صار صهيب، حامل شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن فرّاشاً في مكتب السـيدة زارا زايلمان. وبسـبب مشـاغلها وازدحام جدولها اليومي، لم يكن يكسب خلال يوم عمله الطويل سوى دقائق قليلة يرى فيها السيدة التي يقصـــدها كبار التجار ورجال الأعمال. كانت تنتهي من اجتماع لتلج آخراً ولم تكن ذخيرته الحوارية المتبادلة معها تتجاوز حاجة اســـتلام الايعازات الخاصـــة بوظيفته المركزية، أي تلبية طلباتها واحتياجات

زائريها من الشـــاي والقهوة ثم الإســـراع بتنظيف الطاولة وإعداد غرفة الاجتماعات لاجتماع جديد.

بعد شــهرين من عمله في مكتبها أحس بانســحاق مدمر يرضّ عظامه وهو يتنقل بسرعة وبخراقة لم يعتدها بين الطاولة والمطبخ ليلبي الطلبات المتلاحقة كأي فراش من الفراشين القادمين من الريف بلا أي مؤهلات. ترى متى يحين وقت قطاف ثمرة هذه الغرســة التي غرســها في أعماق روحه؟ كل يوم يزيده يقيناً أن زارا هي زهرته الضــائعة، وكل يوم يزيده اقتناعاً أنه في طريقه للجنون حين يتابع طريقة حديثها مع مندوبي الشركات وسعة معلوماتها والمامها بتفاصيل العمل.

هل انا قادر على اللحاق بها؟

كان ذلك أصعب الأسئلة التي وجهها لنفسه. زارا الآن تتفوق عليه بكل الجبهات، لغتها التجارية، وشـــخصـــيتها القيادية، وقدرتها الإدارية، وملكيتها، وموقعها الاجتماعي. هي الرئيس والآمر وهو المنفذ الملبي للأوامر دون قدرة على أي اعتراض، فهو قد وافق على عمله وشــروطه بنفســـه ولم يجبره على ذلك أحد. مأزق لا فكاك منه. كل النهار يحس ان المكان يجمعه بها فيطمئن مثل طفل يتأكد من وجود أمه بقربه، وفي الليل يعيد خياله إحضـــارها. آلية هو المبادر في تشـــغيلها دون رد أو تفاعل منها، لكن الوضــع انقلب كلياً عندما لاح له ذات صــباح مشــرق

وجه زهرة تنظر له مبتسمة ابتسامة ذات مغزى ثم تقول بعذوبة تقطر عسلاً:

– أهلاً صهيب شلونك!

قالتها وهي تطيل النظر له بنظرة، كانت مفهومة لمن يفهم بتفاصيل نظرات النساء. أدرك أنها النظرة – المفتاح، النظرة التي لا تتحمل غير تفسير ومعنى واحد لاغير: نظرة حب عميق ربما عاندها وتمرد على إرادتها التي كانت تريد إطالة فترة تعذيبه. لقد عادت الى أصلها الريفي الذي لا يعرف الأحقاد، ولم تتمكن من ضبط مشاعرها! قال لنفسه: أخيراً نجحْتُ! ها هي قد أكملت اختبارها لي، وتأكدت من أنني لم أنسها وأنها مازالت عائشة بأعماقي، يا روحي، يا عمري الضائع، يا غزالتي الشاردة، ذلك ما كنت أنتظره! أهلاً صهيب شلونك، قالتها بعربية عراقية وبصوت خفيض، هامس، ندي. انتهى، هذه هي رسالتها لي بعد أن طافت الأرض لتعود لي.

في اليوم التالي وكان خميساً ماطراً بارداً، غاب أربعة من عمال النقل بسبب حادث سير تعرضوا له، وكان على المديرة إيجاد طريقة سريعة لتعويض غيابهم فالشحنة القادمة من الهند لابد أن تصل الى الميناء عصر اليوم. دلفت لزاويته في المكتب قلقة وهي تتمتم:

– كيف حدث هذا بحق السماء في هذا اليوم بالذات! سيتعطل التحميل ونخيّب ظن عميلنا من أول مرة. الميناء تعهد بتفريغ سائق لساعة العمل الأخيرة لا غير كي ينقل البضاعة للباخرة، لكن من اين لي بأربعة عمال في هذا اليوم المطير؟

الحق أن زارا لم تجبره كي يبحث معها عن حل، لكن نظرتها الساهمة الحائرة له حملت طلباً قلبياً لنجدتها لم يتردد في الاستجابة له:

– لا تهتمي لذلك، سأعالج الأمر.

بهدوء طلب منها العودة الى مكتبها وانتظار تلقي المكالمة في نهاية اليوم من الميناء، أن كل شيء قد تم حسب الاتفاق!

لم تسل زارا عن التفاصيل ولم تفعل سوى الرد على مبادرة حاجب مكتبها برسالة شكر من عينيها الناعستين على شكل غمزة سريعة أطارت لبه فلم يدر ما يفعل، هل يستغل الظرف ليطلب منها كشف هذا الغموض الذي غاب بدياجيره منذ نصف عام؟ كلا، سيؤجل مصارحتها الى حين. عليه الآن المضي في تنفيذ ما وعدها به، وأكيد أنها تعد العدة للحديث معه بعد انتهائه من المهمة. لم يعد يطيق الوقوف صامتاً أمامها أكثر من ذلك. زهرة أدخلته معترك اختبار رهيب. هذا هو ذكاء أهل الريف الفطري عندما يعبّر عن نفسه عبر الصدق والبساطة.

أشعرته بما لا يدع مجالاً لشكه أنها لا ترتبط بشيء مع مايكل زايلمان، أي زوج هذا الذي يترك زوجة ساحرة مثلها تعمل في البصرة؟ هي قد تركته يجر شركاته في بغداد مثل الثور واختارت البصرة. هي تعرف، مزهرها سيتبعها، تريد الانفراد به لكنها في هذه المرحلة تراقبه عن كثب، تريد معرفة رده على هذه الفرصة الأخيرة، لسان حالها يقول:

"فعلتُ مالم تفعله إمرأة من قبل. أنت طردتني بكل قسوة من الباب لكني أتيتك من الشباك مثل قطة يائسة محبة لا تريد فقدانك. انا الريفية، طفت الأرض ثم جئتك من دبلن لأقول لك أنني مازلت أحبك وأن تبغددك لا يعني شيئاً، بل هو فعل دنيء لا إنساني أكيد أوحت لك به تلك الارملة القبيحة التي حاولت اختطافك مني، لكن عبثاً فأنت اكتشفت أن جذوري غير قابلة للاقتلاع من قلبك. الآن أوصلت لك الثمرة بين يديك، ما عليك الا قطفها، أتيتك رغم أنك خلال سنين لم تحاول حتى أن تدس لي خبراً صغيراً عنك بيد أختك، لكن قلبي كان يخبرني بأنك ما زلت معي، تتابع أخباري. وعندما عرفت أن كاميليا لم تنجب لك وليداً بعد ثلاث سنين أيقنت أنني السبب، لقد وقفت بينكما.."

سيعوض زهرة كل الحرمان الذي عانته، سيعيد لها الاعتبار ويتوجها من جديد ملكة في مملكة حياته. ملكة لا شريك لها. منذ شهور ورأسه

فارغ من كل شـــيء إلّاها. ها هو يراها أمامه تتوســـله أن يقدم على خطوته الكبرى فيعلن تمسكه بها:

" لم يفت الوقت بعد على اســـتئناف الحب، كلا لم يفت فأنت ما زلت عذراء اليس كذلك زهرة؟ أكيد والا لما قطعت كل المســـافات والأهوال ضـــمن هذه الرحلة الشـــاقة لكي تصـــلي لي، هل بأمكان زايلمان أن يأخذك؟ أبداً، لكن الوضع سائر نحو الاصلاح، حتى الأخطاء التأريخية الكبرى قابلة للإصـلاح، حتى ما كنا نعدّه مستحيلاً تحقق، فهل ستتعثر عملية إصـلاح العطب الذي سـببه تركي لك؟ المهم ان زهرتي لم تذبل. لو أن ساهرة قد رأتك الآن وانت في فستانك المذهل، لو رأت خصـلات شعرك الكستنائي ووجهك الذي ازداد إشعاعاً وابتساماتك التي نثرتها في حفل الشـركة، لو رأت كل ذلك لحسـبت ان الزمن لم يتغير وأن عشـرين سنة لم تترك على أديمك أكثر مما تتركه قبلة على خد حسناء. ولكن لا تحزني يا زهرتي، إذا لم يكن مجيئك اليّ باتفاق مع مايكل، وإذا أخطأت ظنوني التي عدته عارفاً بالأمر صـــارحيه واتركي ما يلي ذلك عليّ. أكتبي له رسالة مفصلة تحكين فيها الحقيقة ببساطة. الغربيون يتفهمون، خاصـــة إذا كان السـبب هو القلب. لن يرض مايكل العيش مع واحدة بلا قلب. هذه ســـتكون أولى الخطوات، أولى علامات العودة الى أيام الهور الهانئة، سـتتباهين بها فيما بعد، لابد أنك سـتغفرين لي خطيئتي

لأني الآن أجازف بكل ما عندي من أجل استعادتك، ستضحكين صباح اليوم التالي عندما تعاينين عنقك في المرآة:

فلك طرّك مزيهر، شسويت برقبتي! شوف!

كانت المسافة بين المخزن والشاحنة تزيد قليلاً على خمسين متراً، ليست بالمسافة البعيدة لو أن ما يراد نقله صندوق واحد وتحت سماء صافية، لكن ما كان ينتظر مزهر هو نقل مخزن كامل، عشرات من الصناديق الثقيلة من مكانها بجر كل صندوق من موضعه أولاً ثم تحميله على عربة صغيرة ذات عجلتين، غالباً ما كانتا تنزلقان تحت ضغط ثقل الحمولة، فيعيد جر الصندوق الثقيل ويحشره في مشبكها. هذه الحمولة التي كانت حصة أربعة عمال اشدّاء، يتعين عليه نقلها ثم رفعها تباعاً بعتلتين كبيرتين لباطن الشاحنة تحت سماء أفرغت كل مخزونها المائي بيوم واحد على رأسه.

بعد ساعة، قضاها مع تخيلاته راسماً بذهنه مشهد المصارحة، أحس بالبلل يخترقه وبدأت الريح الباردة تتوغل تحت الملابس المندّاة لتنخر عظامه بدبابيس حادة. قبل أن يكمل تحميل نصف المخزن اجتاحت أوصاله قشعريرة وراح يترنح في العراء جاراً عربته التي بدأت عجلتاها تطلقان صريراً مزعجاً بفعل الرطوبة. وعندما لم يتبق الا ثلاثة صناديق لتكتمل الحمولة كان جسده قد بدأ التمرد فاستغرق منه جرها بقية

النهار. أغلق الشاحنة وألصق ملصقاً يحمل عبارة "جاهز للنقل" على مؤخرتها وبعدها لا يدري ما حدث سوى أن زارا استدعته بالتلفون فدلف الى غرفتها متلهفاً واحساس لذيذ يلعب داخل صدره يبشر بقدوم حدث هام. لابد انها تريد مكافأته على إنقاذها من مأزق تأخر الشاحنة. دلف سريعاً على غير عادته فوجدها منهمكة بمكالمة تلفونية مفاجئة جادة. كانت عصبية بعض الشيء كما تبين من طريقة مسكها للتلفون وتشديدها على مخارج حروف كلماتها. تجمد لا يريد الحراك وهو يتأمل الشفتين اللتين كانتا في زمان مضى له، ارتفاع الحاجبين عندما تتكلم بانفعال، الكف اليمنى العابثة بخصلات شعر متمرد، وهزة الرأس الخفيفة عندما لا توافق على فكرة لكنها لا تريد رفضها الآن. حتى عطرها العصري تدفق الى رئتيه مشبعاً بضوع المسك والسعد والقرنفل. كل شيء بقي كما كان ولم تضف السنون لوجهها غير مسحة من أخلاق "البزنس" تجلت بصرامة التقاطيع التي فقدت رخاوتها المعهودة، وحدّة مخارج الألفاظ، وغياب العاطفة التي كانت تتدفق من بين أنفاسها لتختلط بأبخرة ضحى الهور. كل شيء بقي كما كان فلماذا لا يعودا كلاهما الى ما كان؟ فجأة رفعت زارا رأسها وأغلقت سماعة التلفون بكفها لتطلب منه بصوت خافت تجهيز القهوة لخمسة أشخاص وبعدها فتح باب كراج الشركة لاستقبال شاحنة كبيرة ستصل بعد ساعة موصية إياه ألّا ينسى تنظيف مكتبها الذي غادرته وسقي النباتات المتسلقة بعد معاينة ذخيرة الشركة من القهوة والشاي وشراء حصة الشهر القادم.

غادرت مكتبها متجهة الى غرفة المحاســـب لكن تليفونها رن فرفع السماعة ليقول للمهاتف انها في اجتماع فوصله صوت معاتب لرجل:

– لا أكثر من ساعة تفصلني عنك ولا كأنك تتذكر شيئاً! أنا بدر، رفيق الصبا! بدر الذي غرق في نهر المزيويل! هل نسيته؟ انتظرك قرب رابع بستان..

صاح صهيب:

– من أنت؟ ما الذي تقوله؟ بدر حي؟ وينتظرني؟ هذا لا يصدق!

أغلق الرجل الهاتف!

ما أن انتهى الدوام حتى انطلق من العشّار الى بساتين أبو الخصيب، لم يهتد الى مدخل للبســـتان فقد امتد على طول محيطه جدار من الأسلاك الشائكة، وحيث تنتهي الأسلاك يواصل جدار من الطين دورانه الممل حول البســـتان بلا نهاية. عاد به الخيال الى الهور فرأى نفســـه واقفاً على الجرف وقالب الخرّيط الأصــفر يذوب في فمه يرقب القوارب تعود من الهور محملة بالبردي والقصـــب، كان چلّاب أم زهرة الذهب يلمع تحت شعاع الشمس، هوّس مع الراقصين في عرس معلم المدرسة فرحان:

جبنالك برنو ما ملعوب بسركيها..

كان اســـتاذ فرحان قد التقط أكبر وأجمل تلميذات المدرســـة الريفية المختلطة، روح فرحان والهوا بظهرك، غنت النساء قارعات على صفائح دهن الراعي: اسمر وين مربا شارب ماي عماره.

ولم يوقظه من سرحانه الا كف ربتت على كتفه، التفت فصاح:

– بدر يا صـــاحبي القديم، لا أكاد أصـــدق عينيّ، كيف غرقت وكيف عدت حياً، لا زلت شاباً كما كنت يا للمعجزة!

– ماذا تقول مزهر، أنا لم أغرق في النهر، الا تعرف أن عاتي هو من حاول قتلي؟

– ماذا؟ ماذا تقول؟ عاتي؟

– نعم، هو كان يستهدفك، كَمَنَ لك خلف طوفة الطين عند مكنة ضخ الماء لكي يضيع صوت الطلقة، وفي اللحظة التي أخذت منك المجداف واستدرت أنت للإيماء لزهرة رأيته، ولكني لم الحق تنبيهك. حينها كانت الطلقة قد غادرت بندقيته في طريقها الى رأســـك لكن الزورق تحرك ليجعل كتفي يستقبل طلقته الحارة بدلاً منك، كيف لم تسمع صرختي عندما صـــحت: الطلقة مزهر؟ سـقطتُ في النهر وغصـت عميقاً كي

يظن عاتي أنني مت فيهرب، لكن الوغد كمن لي الى أن خرجت من جانب بستان ابو زهرة فقادني الى قاربه والبندقية مصوبة الى رأسي وكتفي ينزف. أوثق يديّ وفمي، واشترط علي أن أتوارى شغيلاً في بساتينه في البصرة أقطع عثوق التمر صيفاً وأحرس البستان باقي أيام السنة! قال لي أن اية محاولة للاتصال بكم ستعني فناء القرية كلها فضحيت بنفسي من أجل أن لا ينفذ تهديده!

بكى مزهر بحرقة:

– أنا لم أسمع شيئاً، التفت فوجدت مكانك خال! ربما فكرت أنت بالصراخ، لكن الطلقة كانت أسرع من وصول الفكرة من دماغك الى لسانك، أسرع من صوتك. يا لحظي التعيس يا بدر، أنت ضحيتي إذن، كم بحث عنك الجميع، كم بكاك الجميع، وكم احتار في تفسير غرقك الجميع؟ الكثيرون قالوا أن قلبك صمت فجأة وأضرب عن العمل فسقطت في الدوامة. كان ذلك هو التفسير المقنع الوحيد لكن كيف اختفيت بدون أثر؟ خبرتنا الطويلة مع النهر علمتنا أنه يعيد لنا الجسد بعد أن يستل روحه منه، يوم يومان أو أكثر ثم يأتي من يصرخ: وجدناه! فلماذا أخذك أنت جسداً وروحاً؟ أمك لم تقتنع بما قيل، بقيت سنيناً ترسل النذور لعبد الشط كي يرأف بها ويعيدك اليها. قالت إنك في

صباك أغضبته مراراً، شاكسته مراراً، ولم أجد بنفسي القدرة على تبديد آمالها فأقول:

– بدر غرق يا خالتي غرق ولن يعود..

كانت تبحث عني كل مساء كل خميس لتسألني مرافقتها لعنق النهر:

– أشعر أنه سيأتي من هنا!

كنت أحس الغصة بقلبي، مرة قال لها خالك:

– اتق الله، بدر غرق.

فردت عليه:

– الغريق يعلن النهر غرقه فأين غريقنا؟

لطالما راودني هاجس أن في قصتك غموضاً ما. ثمة سر بقي عصياً عليّ؛ مرات كثيرة زرتني في النوم وفي اليقظة لكنهم حسبوني مهلوساً، أقول لهم بدر يريد تبليغي شيئاً لكن لا أحد كان يريد سماعي. ترى كيف سأبلغ هذا الخبر المفجع لمن تبقى في القرية؟ كيف سيمكنني التكفير عن ذنب حرمانك الحياة مع أمك وأهلك منذ عشرين سنة؟

– دع عنك لوم نفسك، لا شيء يجدي مع الماضي، احك مع حجر ربما سيستجيب لكن الماضي مضى ولن يسمعك! ثم أنك لم تكن مذنباً بشيء، أنه الحظ، الصدفة، القدر، سوء الطالع، هؤلاء هم المذنبون! كان يمكن لفرق ثوان أو أشبار أن تكون أنت الضحية. ولكن قل لي الآن كيف هي حياتكما أنت وزهرة؟ هل تزوج كل أولادكما؟ لا شك أنكما ملأتما البيت أحفاداً، كم حفيد لديكما؟ ومتى غادرتما القرية؟ كم أبن أخذ من زهرة لون عينيها وكم أخذ لون عينيك؟ لا أعرف لماذا تخيلت أنكما ستسميان ابنكما البكر باسمي، هل فعلتما؟ احك لي مزهر، قص عليّ كل شيء..

صمت مزهر برهة، أحنى رأسه ثم أجهش بالبكاء مرتمياً على صدر بدر:

– أنا، أنا، لم.. كيف سأقولها يا ربي، لم أتزوج زهرة، لكن بدر اسمع، أعدك سأصلح غلطتي، سأعود اليها وستصفح عني ونعيد ترتيب ما تهدم بيننا، فات الكثير من الوقت، نعم الكثير لكن تبقّى ما يكفي للاعتذار، أنا مذنب، أعترف، مذنب وأريد تصحيح غلطتي فساعدني أرجوك!

خلص بدر نفسه من حضن مزهر ثم حملق به فاتحاً عينيه كمن لم يصدق ما سمع، صاح وهو يتراجع للخلف:

– ماذا قلت؟ تقصــد أنك لم تتزوج زهرة؟ هل جننت؟ تركتها رغم كل ما فعلته من أجلك؟ هجرتها رغم عنادها شــكر وابنه المخبول المدلل عاتي الذي كان ســـيدفع وزنها ذهباً؟ نكثت عهدها لتتركها تتحمل وحدها تعريض أهلها لخطر بطش عاتي؟ نفضـــت يدك منها بعد أن طافت قصــتها معك الآفاق وبعد أن رفضــتْ التخلي عنك؟ اســتمتعت بحبها وتدليلها ثم تركت أنوثتها تجف مثل قشرة موزة تحت شمس تموز؟ هربت منهـا رغم مجـازفتي من أجلكمـا؟ معنى ذلـك أن مـاكنـت أجـده عـذراً لمصيري قد تلاشى! أن ما كنت أعدّه تضحية مني، وإن لم أخطط لها، لإســعاد عاشــقين كان وهماً. مزهر أنت مجرم لا مثيل لك! أنت قتلتنا نحن الإثنين!

إبن الطنطل

بعد أيام حمى وهذيان وقف الفرّاش خلالها على باب الموت مراراً، عادت له بعض قواه فقصـــد مكتب المديرة بهدف وحيد هو محاولة الوصول لشاطئ بحر الجنون الذي وجد نفسه يسبح في لجته. لابد من حد لهذا التأرجح على حافة الهاوية، فأما الســـقوط نهائياً أو النجاة وكلاهما خلاص.

وقف أمامها مطرق الرأس مثل تلميذ يســتعد لتلقي عقاباً، فأشــارت اليه بلطف أن يجلس وصـوت ناعم يشـوبه احسـاس بالذنب ينسـاب من بين شفتيها:

– أسفت جداً لما حل بك. لم أتوقع أن تنفذ المهمة بنفسك وبمفردك دون مســـاعدة أحد، ذلك كان جنوناً غير مبرر. لقد بعثت الســـائق مرتين للاطمئنان عليك، لا تخش من شـــيء، كل أيام غيابك ســأحســبها أيام عمل مدفوعة الأجر بالكامل وأضيف اليها مكرمة خاصة ويمكنك البقاء في البيت الى ان تتعافى تماماً.

بقي الرجل واقفاً رغم ألوان المرض التي صبغت وجهه الشاحب حتى أن المديرة ظنت أنه لم يسمع ما قالت فأعادت سؤالها:

– لماذا لا تجلس؟ ســـألتك ان كنت ترغب بأيام اســـتراحة أخرى، هل تحسنت صحتك الآن؟ أم أنك تريد ايام استراحة إضافية؟

مرت لحظات صـــــمت أثقل وأكثر لزوجة، والرجل واقف مثل تمثال لمتســول عزيز النفس. كانت المرأة تعرف أن فرّاشــها، أو مرتّب مكتبها كما كانت تسميه، لم يقدْم للكلام عن الحادث الذي سبب مرضــه، فهو طلب مقابلتها لأمر آخر فقالت مبتسمة:

– نقل السائق لي أنك تريد مقابلتي لموضوع مهم!

فجأة رد بنبرة متوسلة:

– لا أريد منك سوى الحقيقة! أنا أسألك، لو طار طائر من قفص ببيتك ورأيته فجأة بعد سنين على شجرة، كيف ستتصرفين؟

هبت المرأة فجأة واقفة بقامتها الســامقة وشــعرها الكســتنائي يتمايل على كتفيها وخطت بهدوء متكلف تاركة مكانها لتقف مقابله تماماً. هذه المرة قرأ في ملامح وجهها علائم انتصـــــار وكأنها تحتفل بفوزها بمعركتها الكبرى:

– تقول طائر فر من قفص؟ أولاً أنا لا أحبس الطيور بأقفاص، الطير للطيران، ثانياً، بعد ســنين ســوف لن يكون الطائر هو نفســه الذي كان في القفص، إن لم يكن قد مات خلال هذه الفترة فأعمار الطيور قصار!

الآن دعنا من هذا، لا أحســـب أنك أردت محادثتي عن الاقفاص والطيور، هل لك بأن تتكرم وتشرح لي قصدك؟

قالت بصوت رقيق فأجاب بنبرة لائمة:

– لا داع لكل هذا الانكار. أنا من جانبي مســـتعد لتحمل كافة التبعات ولكن أريدك انت ايضاً أن تنطقي.. من أنت يا سيدة؟

– عفواً؟ ما هذا السؤال؟ أنا كما عرفتني مديرة الشركة، مر قرابة ستة أشهر على عملك معنا!

– لكن هذه ليست هي الحقيقة. أنت تعرفين أنك لست زارا زايلمان بل واحدة أخرى!

إبتسمت المرأة وحوطت رأسها بكفيها ناظرة للجدار المقابل:

– واحدة أخرى؟ كأنك محقق من ســـكوتلاند يارد، وكأني بطلة فيلم بوليســـي، ما الأمر؟ قص عليّ ما الذي جرى ســـيد رهيّف؟ يبدو أن مرضك قد أتعبك حقاً. كما عرضت عليك قبل قليل، يمكنك الاستراحة في البيت فصحتك تهمني الآن أكثر من الخدمة.

– آخ، أنت ترقصين على جراحي.

همس بصوت خفيض ثم قال:

– أنا أسألك عن شخص اسمه مزهر!

– ابتسمت المديرة ثانية:

– امرأة أخرى ومزهر، من هو مزهر؟ هل عرفني يوماً ما أو عرفته؟ اين؟ ومتى؟ ما مستوى هذه المعرفة؟ هل لك أن تفصّل أكثر؟

أحس أنها تتقصـــد دفعه لكي يتعثر ويســـقط فتدوس عليه، فقال وهو يحاول الا يفقد السيطرة على ارتفاع نبرة صوته:

– لا يعقل أنك لا تتذكرينه، لقبه كان ابن الطنطل، كان في الهور وجدته بتّية عشيقة الطنطل، كنتما سوية في القرية هو وانت، في ذات المدرسة حتى نهاية الابتدائية، كنتما عاشقان لبعضكما.

ثم واصل كمن يرتل نصاً مقدساً:

– كانا إثنان هو واصـــل ســـيره وهي توقفت، هو طار وهي أســـقطتها بندقية رعناء..

قهقهت المديرة ثم انتبهت لنفسها عندما رفع مزهر رأسه فبانت ملامحه المنهكة فقالت:

– تتكلم شـــعراً ســـيد رهيّف! طنطل ومزهر وبتّية، وفي الهور، كل ذلك دفعة واحدة، هل تراني ابنة هور لكي أعرف أهله؟ نعم، ســـمعت من

زوجي شـــيئاً عن الهور، فهو قرأ عنه عندما كان طالباً في كلية لغات الشــرق، لكن ذلك الذي ســمعته لا يعدو أن يتجاوز مســتوى معلومات الســواح. مثلاً مما ســمعت أن نســاء الهور خشــنات لا يشــبهن بنات المدينة الترفات ذوات الأظافر المصبوغة والبشرة الناعمة التي لم تحترق بلفح شـمس ولم تتشـقق من فعل صـقيع وبرد! ثم أن لهجتهن الصـعبة الفريـدة لا يعرفهـا غيرهن. غير ذلـك لاحظّ لهنّ بتعليم غـالبـاً. عقولهن كما تناهى اليّ، لا تستوعب أكثر من مفردات الهور، أليس كذلك؟ ليس ذنبهن أبـداً، هكـذا هي الحيـاة في هـذه البلاد، ليس في ذلـك عيـب فالريفيون للريف وأهل المدن للمدينـة كما تعرف! أنت إذن تبحث عن أخرى تشبهني، أنتم تقولون يخلق من الشبه أربعين!

صــمت وكأنه عجز عن إيجاد الكلمات المناســبة، ثم عاد الى ســؤالها بنبرة تقرب من التضرع:

– هي لا تشبهك، انها أنت وأنت هي!

– ســـيد رهيّف أراك منغمراً كلياً بهذه الحكاية، أنت تتحدث عن ماض عتيق كما يبدو، هل هو مهم لهذا الحد، ذلك الماضـــي الذي تتحدث عنه؟ بنت عرفتها أو ســـمعت حكايتها في الطفولة وأي منا لم يعرف أحداً في الطفولة ثم يفقده؟ فقدان رفاق الطفولة مثل فقدان العمر ذاته، أمر مرهون بالزمن.. الوقت يتحرك، الناس يتحركون معه!

– وهل تظنيها علاقة طفولة عابرة لمن فقدها؟ هي نصـــف العمر. نصف العمر الجميل.

– نصـــف العمر؟ عمر من؟ وكيف إذن فرط صـــاحبك الذي كلفك بالبحث عن الفتاة الضـائعة بنصـف العمر الحلو لا أفهم! كما لو كنت تتكلم عن حقيبة نُسيت في القطار أثناء سفر، أو..

– أنت تعذبينني، أنا سألتك سؤالاً واحداً لا تريدين إجابتي عنه. هل هذا هو اسمك الأصلي؟ سامحيني، قدّري موقفي.

– سـأسـايرك، أنت تبحث عن فتاة عرفتها قبل سـنين، وكما فهمت من كلامك أنها كانت فتاة ريفية من الهور، وأنك تظنني هي تلك الفتاة، أو التي كانت فتاة، ولكنها تنكرت باسـم آخر. هل هذه هي القصـة كلها؟ قصـة ممتعة حقاً، مع ذلك يتوجب أن أسـألك: لماذا يتنكر المرء؟ لماذا يغير شكله واسمه؟ لابد من وجود سبب ملّح، فالتنكر يعني حياة أخرى، وجه آخر. التنكر هروب، واختفاء، وتزييف للواقع. وأنت، طالما كنت مقتنعاً بأن تلك المرأة قد أبدلت اسـمها وشـكلها ولم تشـأ الكشـف عن حقيقتها، حتى عندما تخيلت نفسك قد ضـبطتها متلبسـة بالتنكر، معنى ذلك أن قصـتها مع من يريد التعرف عليها ليسـت على ما يرام. على الأقل ليس على ما ترومه هي، تنكّرها وتغيير اسمها يشير الى تعرضها لظرف مروّع اليس كذلك؟

ثم لحظة، توقف، إذا كنت الآن مقتنع أن ريفية فقيرة مثل زهرة لم تتجاوز تعليمها الابتدائي، ولم تبارح قريتها أبداً قد تمكنت من مغادرة حافة الهور والوصول بشكل ما الى العاصمة، ثم تتركها لتتسلل وتنفذ الى حدود أوربا، وتتابع هناك تعلمها الإنكليزية، ثم تصارع في المجتمع الجديد الغريب لتجد مكاناً لائقاً، بعدها تتسلق لتصير مالكة لكبريات شركات النقل وتؤسس داراً كبرى للإعلان والنشر، هذا عمل يشبه الاعجاز أو في اقل تقدير سيناريو فيلم خيالي! هذا معناه يا سيد رهيّف ان صاحبك مزهر قد خسر رهان العمر التي لا يعوض! إذا كانت زهرة تمكنت من أن تصبح زارا وتتزوج بمدير شركات ناجح يعهد لها بإدارة شركاته فهذا يدل على درجة عالية من حمق مزهر وسذاجة تقديره! ويدل أيضاً على قسوة قَدَرية لا مثيل لها. نعم، قسوة القدر الذي أراد أن يسخر منه بطريقة مرعبة فأعاد الريفية التي هامت به وأحبها لكنه رفضها لأنها ريفية، أعادها زوجة محترمة عصرية لمليونير هو رئيس الشركة التي ربما سيشتغل هو موظفاً صغيراً بها.. من يدري؟.. فظيع.. هذا فظيع.. سيد رهيّف، هذا لايحتمل، هل تتوقع إمكان حدوث ذلك؟

– أنت تسألني كيف حدث ذلك! نعم من حقك السؤال! كيف لي أن أختصر لك حياة كاملة بدقائق؟

– لا داع لقص قصـــتها عليَ الآن، لكنك أثرت اهتمامي حقاً! يمكن أن نتفق على حل! ما رأيك بهذا المقترح: لماذا لا تفكر أن تصـــنع من هذا الســؤال رواية؟ فكرة عبقرية أليســت كذلك؟ هل يكفيك شــهر لتكتب لي حياتهما التي عاشـــاها في الهور؟ أكتبها وســـأقرأها لأنني متشــوقة لأن أعرف من تكون تلك الفتاة وما علاقة ابن الطنطل بها. طلبي الوحيد هو أن تكتبها بصـــدق، اكتبها كما كانت! اعتبرني تلك المرأة، لأكن أنا زهرة وقد فقدت ذاكرتها. زهرة تريد منك إعادتها الى تلك الأيام لأنها قد محيت من رأســـها. أفهمت؟ فقدت ذاكرتي! أعدها لي! ذكرني بحياة الهور، بطيوره، مياهه، ناســه، غضــبهم، مشــاكلهم، أحزانهم، أغانيهم، لهجتهم، عقائدهم، قصصهم، إنها فكرة رائعة صدقني! قصة كهذه يمكن أن تحدث ضـــجة! لا تنس اتفاقنا: قول الحقيقة بالدرجة الأولى، ثم بعد ذلك ألّا تتجنب الخوض بذكر التفاصيل مهما كانت صغيرة ومهما بدت لك غير مهمة. مثلاً من المهم أن أعرف ما الذي فعله صـــاحبك لتلك الفتاة كي تهرب وتتنكر؟ وما الذي فعله لكي يســـتعيدها؟ أنت جعلتني طرفاً في قصتها لذلك لابد لي من معرفة كل شيء!

ابتســـمت المرأة بعذوبة فرّت من بين شـــفتيها وحلّقت في أرجاء الغرفة محمّلة بأريج الســعد والياســمين والقرنفل، فطارت روح مزهر مثل بجعة فرت من ســـجن لفضـــاء الهور. رأى قوارب العائدين من الهور محملة

بالقصب والبردي وجوقة من طيور الغاق والغرنوق ترافقها، وسمع غناء زهرة الصبية من بعيد:

يو أدري تمر منا.. رشّيت الدرب ريحان..

ربما غفى للحظات على صوت خرير الماء المنساب على جوانب قاربه المتهادي، لكن صوت المديرة أعاده الى نفسه:

– إذا أقنعَتني القصة انني لست أنا، بل تلك المرأة المقصودة، سأخرج من جلدي وأقرّ بهذه الحقيقة.. هذا وعد!

– حقاً؟ اتفقنا إذن، ستقرأين كل شيء.. تماماً كل الذي تريدين معرفته.

– أنا سأساعدك باختيار اسم للرواية يتناسب مع الموضوع، لقد أعجبني لقب صاحبك ويبدو أنه الاسم الأنسب لروايته:

ابن الطنطل!

تعريفات لمفردات الهور

الطنطل: كائن هوري خرافي كلي القدرة لا وجود له.

الإيشـــان: موقع أثري قديم يخاف أهل الهور من الوصـــول اليه لأن الطناطل تحرس الذهب المدفون به.

خلسَ: أصاب بمس جنون او أرعب احداً ما.

عليّخ: شخصية من الاهوار بين الحقيقة والاسطورة تمثل رجلاً ضخماً قوي الجسد بشكل استثنائي.

ابو الجنّيب، ابو الحكم، ابو الزمّير: تسـميات محلية لعدد من اسـماك الهور التي لا تؤكل.

السبّاح: نبات نهري ينمو على ضفاف الأنهار ويمتد للماء.

التنشير: عملية معالجة الطفل المريض بغمس بضع شرائح قصب او خوص النخل بالماء ثم رش الرذاذ على وجه المصـــاب مع قراءة آية ما..

العَلَكَ (العلق): سوار من القماش الأخضر يُشترى من الضرائح ويُلف على معصم الطفل لوقايته وحفظه من عين الحسود والمرض.

السَّلَف: صف البيوت القصبية المتجاورة الذي يشكل جزءاً من القرية.

الفرخة والفرخ: البنت والولد.

فلك طرّك ودهر فرّك: مسبات نسوية جنوبية تعني حرفياً ليسقط عليك جسم فضائي ويشقك، وليطيح بك الدهر، ولكنها غالباً ما تستخدم في المزاح أيضاً.

المطّال: هو فضلات البقر المجففة تحت الشمس. تصنعها النساء على شكل أقراص وتستخدم بعد جفافها التام كوقود.

المحْمَل: هو خزانة الخشب الأساسية في صرائف أهل الهور. تدخل الصريفة عادة كجزء من جهاز العروس وتبقى هناك ما بقيت العائلة. عليها تنضد أفرشة والحفة البيت وتسمى(النضدة).

الطابك: حجر دائري من الطين المجفف تحت الشمس وبالنار يصب عليه عجين الرز السائل فيصير (خبز طابك).

السِيّاح: معدن محدب يصب عجين الرز السائل على ظهره ليصير (خبز السيّاح).

الفالة: هي رمح كبير متعدد الرؤوس مثل شوكة الأكل ولكنها بقدر طول قامة الرجل وأحدّ من الشوكة بكثير. تنحدر من العصور السومرية

القديمة وتستخدم في الهور لصيد السمك، والصيد بالفالة يستلزم توفر مهارة عالية.

الطفافيح: شبكة صيد تثقل نهاياتها بالرصاص كي تهبط لقاع المياه الضحلة تثبت في القاع بقضبان من القصب.

السليّة: شبكة تثقل نهاياتها بالرصاص وترمى الى الماء لتشكل مخروطاً يحبس ما صادف وجوده من أسماك ضمن فضائه.

ضرابيط النفاش: النفاش هو نهاية نبات البردي الاسطوانية الشكل، تتحول بعد فركها الى قش ناعم متطاير. يسمى الضربوط.

الخرِّيط: ثمر البردي، مادة صفراء اللون ذات رائحة لطيفة وطعم حلو.

فوّادة وسيد ذرب: سادة محليون ذوو شأن.

الغرّافة: مجذاف القارب يغرف الماء بدفعه عكس اتجاه الحركة.

المردي: قصبة قوية وطويلة تستخدم كوسيلة تجديف عن طريق دفع قاع النهر الى الخلف.

طبّاخات الرطب: موسم الحر الشديد أواخر الصيف حيث ينضج التمر.

"جبنا لك برنو ما ملعوب بسركيها": البرنو هي بندقية صنع مدينة برنو التشيكية شاع استخدامها في ريف جنوب العراق، وكانت من المقتنيات الثمينة للغاية حيث يتباهى الرجل بكون بندقيته جديدة. والاهزوجة تعني هنا أن العروس لم تُمس من قبل.

مشرّم تراجيها: التراجي، هي الأقراط. والعبارة وصف لصورة بشعة عن فحولة رجل انتزع أقراط البنت من أذنيها أثناء العملية فأسال دمها!

الشيلة: هو غطاء رأس المرأة الأسود.

چلّاب: كلّاب، حلية منقرضة مثل (الحِجِل) من الذهب عادة على شكل دبوس مرصّع يثبت غطاء رأس المرأة (الشيلة).

متانيتك: منتظرتك.

المشحوف: زورق صغير طوله تسعة أذرع وعرضه ذراعان، يستعمله سكان الاهوار لنقل الحشيش إلى حيواناتهم أو الانتقال من مكان إلى آخر.

الماطور: وهو زورق صغير طوله سبعة أذرع وعرضه ذراع واحد، ويقل العرض تدريجيا حتى يصبح بحدود الشبر في طرفي الزورق.

الطرّادة: أطول من المشحوف، وتصنع من ألواح خفيفة من الخشب، وتستعمل في صيد السمك، والطيور أيضا، كما يستعملها السكان في الأعراس.

البلم: زورق كبير يبلغ طوله عشرون ذراعاً، ويستعمل لنقل الشلب (الرز) والقصب والبردي من الهور.

وهذه أسماء ساكني قرية مزهر:

أسماء النساء:

بتّية، جيتايه، حذّافة، مصّيعة، صولاغه، حوّاطة، حِتِم، حرَيْشة، شرشابة، موحة، بتْهن، جورية، خصّافة..

اسماء الرجال:

دشر، دهش، كريّش، كزار، رهيف، جعاز، مناتي، عذافة، شغاتي، جماغ، شنيور، شيحان، حواشه، درباش، لهمود، شلش، محيبس..